التدرج في الدعوة إلى الله في ضوء القرآن الكريم
خطاب موسى مع فرعون أنموذجاً

إعداد
د. محسن بن حامد المطيري

د. محسن بن حامد المطيري

- الأستاذ المساعد بقسم الدراسات القرآنية في كلية المعلمين جامعة الملك سعود.
- حصل على درجة الماجستير من كلية التربية بجامعة الملك سعود بأطروحته: كتاب (التحصيل لفوائد كتاب التفصيل) لأبي عمار المهدوي: تحقيقاً ودراسة.
- حصل على درجة الدكتوراه من كلية التربية بجامعة الملك سعود بأطروحته: (الخطأ في تفسير القرآن بالقرآن).

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله الأولين والآخرين، وقيوم السماوات والأرضين، وأشهد أن محمدا عبده، ورسوله، وخليله، وأمينه على وحيه، أرسله إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، صلى الله عليه، وعلى آله وأصحابه الذين ساروا على طريقته في الدعوة إلى سبيله، وصبروا على ذلك، وجاهدوا فيه حتى أظهر الله بهم دينه، وأعلى كلمته ولو كره المشركون، وسلم تسليما كثيراً، أما بعد:

فإن الدعوة إلى الله عز وجل هي مهمة الأنبياء والرسل، وواجب أهل العلم من المؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [فصلت: ٣٣].

يقول أبو حامد الغزالي : " إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين جميعًا، ولو طوي بساطه، وأهمل علمه وعمله، لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وعمت الفتنة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد، ولم يشعروا بالهلاك إلا يوم التناد".[1]

فالدعوة إلى دين الله تعالى جزء لا يتجزأ من هذه الرسالة العظيمة،

(١) إحياء علوم الدين للغزالي: (٢/ ٣٠٦)، وينظر: الخلاصة في الدعوة، علي الشحود: (١/ ٧).

وقد فصَّل القول فيها القرآن الكريم، والرسول صلى الله عليه وسلم في أقواله، وأفعاله، وسائر أحواله.

وهكذا فإن الدعاة في حاجة دائمة إلى التزود من فقه النبوة في الدعوة إلى الله، ليحوز عملهم شرطي القبول وهما: الإخلاص لله، والمتابعة للسنة النبوية.

وقد أحببت من خلال هذا البحث أن أطرق جانبا مهما من جوانب الدعوة إلى الله، وهو جانب التدرج في الدعوة إلى الله، وذلك لأهميته في فقه الدعوة ومخاطبة الناس، وإقناعهم بما يطرحه الداعية إلى الله.

إن ربط الدعوة بالكتاب والسنة من أهم المهمات حتى تكتسب صفتي الاتباع للهدي النبوي، والبصيرة والعلم، وهي التي جاء التصريح بها في قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

والداعية لا يكون على بصيرة إلا إذا دعا إلى الله على بصيرة في ثلاثة أمور:

الأمر الأول: أن يكون على بصيرة فيما يدعو إليه، وذلك بالعلم لا بالجهل.

الأمر الثاني: أن يكون على بصيرة في حال المدعو، فلا بد من معرفة حال المدعو؛ ليدعوه بالطريقة والكيفية التي تناسبه، وتكون أكثر فائدة له، وتأثيرا فيه.

الأمر الثالث: أن يكون على بصيرة في كيفية الدعوة.[1]

(١) زاد الداعية إلى الله للشيخ ابن عثيمين: (٧)، وينظر: فقه الدعوة في صحيح البخاري، =

وقد عرض القرآن الكريم عددا كبيرا من صور الدعوة إلى الله من خلال عرض عدد من قصص الأنبياء، ومواقفهم مع أقوامهم في دعوتهم، وتنوع الحال مع الملوك كفرعون والنمرود، والأغنياء والمتكبرين كقارون وقوم عاد، والأب مع ابنه كنوح، ومع والده كإبراهيم، ومع زوجه كنوح ولوط، كل هذا ليكونوا قدوة ونبراسا للدعاة السائرين في هذا الطريق.

وسنعرض من خلال هذا البحث أنموذجا أطال القرآن في ذكر تفاصيل دعوته، ومواقفه مع طاغية من أصلف، وأعتى طغاة التاريخ، وهي قصة: "موسى مع فرعون" تلك القصة التي لم تكرر في القرآن قصة نبي مثلها لكثرة عبرها وفوائدها، وسوف نعرض لهذا التدرج الذي سار عليه موسى في دعوته لفرعون وخطابه معه، ووسمت هذا البحث بـ(التدرج في الدعوة في ضوء القرآن الكريم: خطاب موسى مع فرعون أنموذجاً).

وقد اخترت هذا البحث للأسباب التالية:

أولاً: حاجة الداعية إلى الله إلى هذا الأسلوب من أساليب الدعوة إلى الله.

ثانياً: العبر، والعظات التي زخرت بها قصة موسى مع فرعون في جانب الدعوة إلى الله.

ثالثاً: جهل بعض الدعاة فضلا عن غيرهم من عامة المسلمين بفقه الدعوة إلى الله، ومن ذلك فقه التدرج، والأولويات.

رابعاً: وقفت على عدد من البحوث التي تطرقت للتدرج في الدعوة إلى الله بعموم، ولكنني لم أقف على بحث يطرق هذا الجانب من الدعوة بخصوص في خطاب موسى مع فرعون من خلال القرآن الكريم كدراسة موضوعية

= سعيد بن وهف القحطاني: (١/ ٧).

تحليلية.[١]

ومن المهم في مقدمة هذا البحث أن أنبه إلى أن المراد بالتدرج ليس هو التدرج في التشريع، فلن أتطرق إلى هذا النوع من التدرج، وإنما المراد كما هو في عنوان البحث التدرج في الخطاب الدعوي من اللين إلى الجدال، والحوار، إلى الشدة والتهديد.

كما أوضح أن هذا التدرج ليس في كل خطاب وجهه موسى عليه السلام لفرعون بكل تفاصيله، ولكنه تدرج دعوي في الجملة، فقد يعرض أحياناً ما يجعله يقدم الشدة لغرض ما، والتهديد في حال أخرى لغرض عارض، وهكذا، ولكن المنهج العام هو التدرج من اللين إلى الجدال، والحوار، إلى الشدة، وسيظهر ذلك من خلال تفاصيل البحث.

هذا وقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة تعريفية، وستة مباحث:

المقدمة: وبينت فيها أهمية الموضوع، والدراسات السابقة، وأسباب اختيار الموضوع، ومنهجي في البحث. المبحث الأول: تعريف التدرج في الدعوة إلى الله.

المبحث الثاني: أهمية التدرج في الدعوة إلى الله.

المبحث الثالث: التدرج في خطاب الأنبياء عليهم السلام.

المبحث الرابع: خطاب موسى مع فرعون باللين والملاطفة.

المبحث الخامس: خطاب موسى مع فرعون بالحجة والبرهان.

---

(١) من هذه البحوث: بحث التدرج في دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، للدكتور: إبراهيم المطلق، ومنهج الدعوة في ضوء الواقع المعاصر، للدكتور: عدنان العرعور، حيث عقد فصلاً في التدرج في الدعوة.

المبحث السادس: خطاب موسى مع فرعون بالشدة والتهديد والدعاء عليه بالهلاك.

منهج البحث:

وقد تتبعت في هذا البحث الآيات التي كان فيها حوار بين موسى مع فرعون، وصنفتها، ثم جمعت كلام المفسرين، ووقفاتهم وتحليلهم لهذا المفهوم في التدرج من اللين والملاطفة، ثم انتقاله بعد ذلك إلى الجدال، والحجة، والبرهان، ثم انتقاله أخيراً إلى الشدة والغلظة. ولكثرة الآيات الواردة في ذلك، وخاصة في الجدال، والحوار فقد اكتفيت ببعض الآيات التي أبرزت جانب التدرج في دعوة موسى عليه السلام لفرعون من جهة خطابه، وطريقته في دعوته وإقناعه.

المبحث الأول:
تعريف التدرج في الدعوة إلى الله:

التدرج لغة:

بالنظر في معاجم اللغة العربية نجد أن كلمة (درج) قد جاءت بمعنى المشي، والمضي فيه. ففي معجم مقاييس اللغة: (دَرَجَ) الدال والراء والجيم أصل واحد يدل على مضي الشيء، والمضي فيه، من ذلك قولهم: درج الشيء، إذا مضى لسبيله.(١)

وفي الصحاح: يُقال: درج الرجل، ويدرج دروجًا، ودرجانًا أي مشى.(٢)

وقال الأصفهاني: " يقال: فلان يتدرّج في كذا، أي : يتصعّد فيه درجة درجة، ودَرَجَ الشيخ والصّبيّ دَرَجَاناً : مشى مشية الصاعد في درجه. والدَّرْجُ : طيّ الكتاب والثّوب".(٣)

وأما درَّج بتشديد الراء فمعناها التأنِّي في تناول الشيء أو بلوغه.

ففي لسان العرب: "يقال: درَّجت العليل تدريجًا، إذا أطعمته شيئًا قليلًا، حتى يتدرج إلى غاية أكله، كما كان قبل العلة درجةً درجةً".(٤)

ودرَّج فلانًا إلى الشيء: أدناه منه قليلًا قليلًا وعوّده إياه.

وفي القرآن الكريم : ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٣]، وقال تعالى : ﴿ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَىٰ

(١) معجم مقاييس اللغة: (٢/ ٢٧٥).

(٢) الصحاح للجوهري: (١٦/ ٣١٣)، المعجم الوسيط: (١/ ٢٧٧).

(٣) مفردات القرآن للأصفهاني: (٣١١).

(٤) لسان العرب: (١/ ٩٦٣).

﴿ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾[النساء: ٩٥].

ومن خلال ماسبق نعلم أن اللفظ جاء فعلًا مجردًا، ومزيدًا بالتضعيف، وجاء اسمًا، ومع الاختلاف اليسير في معاني الكلمات، إلا أنها تدل على المشي والحركة الهينة، والصعود في المراتب.

التدرج في الاصطلاح:

من خلال معرفة معاني التدرج في اللغة يمكن الوصول إلى تعريف يُظهر لنا المعنى الاصطلاحي لمعنى التدرج في الخطاب الدعوي.

فقد عرّفه الدكتور إبراهيم المطلق بأنه: "التقدم بالمدعو شيئًا فشيئًا للبلوغ به إلى غاية ما طلب منه وفق طرق مشروعة مخصوصة".[١]

وعرّفه الدكتور العرعور بقوله: "هو الانتقال بالمدعو من الأسهل إلى الأصعب، ومن كلية إلى أخرى، ومن الكليات إلى الجزئيات، ومن الدعوة النظرية إلى الدعوة العملية التطبيقية، ومن الإيمان إلى الأعمال، ومن التوحيد إلى العبادات.

والانتقال به في باب المحرمات، من محرم إلى آخر.. ومن تحريم الكبائر إلى تحريم الصغائر، حتى يصل المدعو إلى مرتبة التكيف مع كل توجيه، والانصياع لكل أمر).[٢]

ويلاحظ على تعريف الدكتور العرعور أنه مع تعريفه أضاف وصفاً تمثيلياً لطريقة التدرج في التشريع، والدعوة، وذلك خارج عن الحد والتعريف.

ويلاحظ أيضاً أن كلا التعريفين موجه إلى التدرج في التشريع أكثر منه

(١)التدرج في دعوة النبي للدكتور المطلق: (١٢).

(٢) منهج الدعوة: (١٤٠).

اتجاها إلى الخطاب الدعوي، ومراعاة حال المدعو، والتدرج في الدعوة بحسب حال المدعو، وهو المراد في هذا البحث، حيث سيكون التركيز على طريقة خطاب موسى عليه السلام مع فرعون، وتدرجه معه في الخطاب الدعوي.

ولذلك فإنه يمكن تعريف التدرج في الخطاب الدعوي بأنه: "الترقي في الخطاب الدعوي، واختلاف أسلوبه بما يقتضيه حال المدعو وواقعه".

فلفظ الترقي يشير إلى معنى التدرج في اللغة، وهو الصعود درجة درجة في خطاب المدعو، لأجل إقناعه، ووصوله للحق، وهي الغاية، والمقصد من الدعوة إلى الله.

وقيد: "واختلاف أسلوبه" يشير إلى الاختلاف في درجة الخطاب من حيث الملاينة والتلطف، أو الجدال، والحوار العقلي، أو الشدة، والتهديد، والوعيد.

وقيد "حال المدعو وواقعه" يشير إلى الحكمة في التدرج بما يوافق الزمان والمكان الذي ينشأ فيه المدعو، وهو ما يشير إليه بعض العلماء بفقه الواقع.[1]

(١)ينظر في هذه المسألة كتابي: فقه الواقع، د.ناصر العمر: (٥-٢٥)، وفقه الواقع، للشيخ ناصر الألباني: (٥-٦).

المبحث الثاني:
أهمية التدرج في الدعوة إلى الله:

إننا حين نرى الاستعجال الذي يصيب بعض الدعاة في الوصول لهداية الناس، ووصول الحق إليهم، ونرى التدرج الذي انتهجه عدد من الأنبياء مع أقوامهم في دعوتهم نعلم حينها مدى حاجة كثير من الدعاة إلى دراسة منهج الأنبياء في الدعوة، وطرقهم، والأساليب التي اتخذوها في سبيل الدعوة.

ومن ذلك منهج التدرج في الدعوة إلى الله، وهو المنهج الواضح في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، حيث بدأ في تقرير التوحيد مدة طويلة في مكة جاوزت نصف الرسالة، ثم انتقل في المدينة إلى تقرير الشرائع الأخرى.

وإن من يتأمل في رسالة الإسلام منذ بعثته صلى الله عليه وسلم إلى أن اختاره الله إلى جواره يتضح له أن التدرج كان الظاهرة البارزة في مسار الرسالة، فالقرآن الكريم أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم منهجاً، قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾ [الإسراء: ١٠٦].

وفي ذلك يحلق سيد قطب فيقول: "لقد جاء هذا القرآن ليربي أمة، ويقيم لها نظاماً، فتحمله هذه الأمة إلى مشارق الأرض ومغاربها، وتعلم به البشرية هذا النظام وفق المنهج الكامل المتكامل. ومن ثم فقد جاء هذا القرآن مفرقاً وفق الحاجات الواقعية لتلك الأمة، ووفق الملابسات التي صاحبت فترة التربية الأولى...جاء ليكون منهجاً عملياً يتحقق جزءاً جزءاً

في مرحلة الإعداد، لا فقهاً نظرياً، ولا فكرة تجريدية تعرض للقراءة والاستمتاع الذهني! وتلك حكمة نزوله متفرقاً، لا كتاباً كاملاً منذ اللحظة الأولى".(١)

ومن صور التدرج أن بدأ الإسلام بأركان الإيمان لإفراد الله عز وجل بالعبودية ونبذ الشرك والوثنية، وبعد بضع سنوات من تثبيت عقيدة التوحيد في نفوس الصحابة فرضت الصلاة، ثم الصيام، والزكاة، والجهاد، والحج.

وأما في المدعوين أنفسهم فقد تدرجت دعوة النبي صلى الله عليه وسلم إذ بدأ بمحيطه القريب جدا: زوجته خديجة، وصاحبه أبي بكر، وابن عمه علي بن أبي طالب، وغلامه زيد بن حارثة، ثم اتسعت الدائرة لتشمل محيطًا من أقاربه أوسع من ذي قبل عملًا بقوله - عز وجل - : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

وهناك عدة إشارات في القرآن الكريم، والسنة النبوية إلى أهمية التدرج، ومخاطبة المدعوين بحسب أحوالهم، يقول تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل: ١٢٥].

يقول ابن القيم معلقا على هذه الآية: (فذكر سبحانه مراتب الدعوة، وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو: فإنه إما أن يكون طالبا للحق راغبا فيه محبا له مؤثرا له على غيره إذا عرفه؛ فهذا يدعى بالحكمة، ولا

(١)في ظلال القرآن، سيد قطب: (٤/ ٢٢٥٣)، وينظر: تفسير الرازي: (٢٤/ ٦٩).

يحتاج إلى موعظة، ولا جدال، وإما أن يكون معرضا مشتغلا بضد الحق، ولكن لو عُرِّفه عَرَفه، وآثره، واتبعه؛ فهذا يحتاج مع الحكمة إلى الموعظة بالترغيب والترهيب، وإما أن يكون معاندا معارضا فهذا يجادل بالتي هي أحسن فإن رجع إلى الحق، وإلا انتقل معه من الجدال إلى الجلاد إن أمكن؛ فلمناظرة المبطل فائدتان:

أحدهما: أن يرده عن باطله، ويرجع إلى الحق.

الثانية: أن ينكف شره وعداوته، ويتبين للناس أن الذي معه باطل، وهذه الوجوه كلها لا يمكن أن تنال بأحسن من حجج القرآن، ومناظرته للطوائف؛ فإنه كفيل بذلك على أتم الوجوه لمن تأمله، وتدبره، ورزق فهما فيه، وحججه مع أنها في أعلى مراتب الحجج).[1]

ومن الإشارات الظاهرة إلى التدرج في الدعوة ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣ ﴾ [الفرقان: ٣٢ - ٣٣]

يقول الرازي: "إنه تعالى لو أنزل الكتاب جملة واحدة على الخلق لنزلت الشرائع بأسرها دفعة واحدة على الخلق فكان يثقل عليهم ذلك، أما لما نزل مفرقاً منجماً لا جرم نزلت التكاليف قليلاً قليلاً فكان تحملها أسهل".[2]

لقد نزل القرآن ليربي أمة ويخرجها من الظلمات إلى النور، والتربية تحتاج إلى زمن، وإلى تأثر، وإلى فعل يترجم التأثر والانفعال إلى واقع يشاهده

(١)الصواعق المرسلة: (٤/ ١٢٧٦)، وينظر: بدائع التفسير: (٣/ ٦٤-٦٨).

(٢)تفسير الرازي: (٢٤/ ٦٩).

الناس، والنفس بطبيعتها لا تتغير تغيراً كاملاً شاملاً بين يوم وليلة بقراءة كتاب واحد، أو بموعظة، أو خطاب عارض، وإنما تتأثر يوماً بعد يوم باحتكاكها بالأحداث والمجتمع الذي تعايشه؛ وتتدرج في مراقي الإيمان بهذه المعايشة قليلا قليلا، فلا تنفر من هذه التكاليف كما تنفر منها لو قُدم لها ضخماً ثقيلاً عسيراً.(١)

ومن الأقوال الصريحة في ذلك التدرج من السنة ما جاء في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: " إنما نزل أوَّل ما نزل منه - أي القرآن - سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا : لا ندع الخمر أبدًا، ولو نزل لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا أبدًا ".(٢)

وقد بيَّن ابن حجر رحمه الله في شرحه لهذا الحديث الحكمة من هذا التدرُّج فقال: "أشارت إلى الحكمة الإلهية في ترتيب النزول، وأن أول ما نزل من القرآن الدعاء إلى التوحيد، والتبشير للمؤمن والمطيع بالجنة، وللكافر والعاصي بالنار، فلما اطمأنت النفوس على ذلك أنزلت الأحكام، ولهذا قالت: "ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندعها " وذلك لما طبعت عليه النفوس من النفرة عن ترك المألوف".(٣)

فالمدعوون هم العنصر الأساس من عناصر الدعوة إلى الله عز وجل،

(١)في ظلال القرآن: (٥/ ٢٥٦٢)، تفسير السعدي: (٥٨٢).

(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن: (٦/ ١٢٢)، برقم: (٤٩٩٦).

(٣) فتح الباري: (٩/ ٤٠)، وينظر: عمدة القاري للعيني: (١٤/ ١١٣).

فلم تشرع الدعوة إلا لأجلهم، لذا يجب الاهتمام بهم، ودراسة حالاتهم، والتصرف تجاهها بما يناسبها، مما يقرره الشرع الحنيف.

فمن العبث الدعوي: أن يلقى الكلام على عواهنه، بدعوى التبليغ دون النظر إلى حال المدعوين، وأن يؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر -مجرد الأمر والنهي- دون معرفة واقعهم.

ومما لا شك فيه أن المدعوين ليسوا في الاستجابة سواء، لا في الفهم، ولا في العلم، ولا في التدين كذلك، فمخاطبتهم على حد سواء، ليس من الحكمة في شيء، قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

والبصيرة أخص من العلم العام، وفيها معنى زائد عليه، فهي تعني: البينة والإدراك، والوضوح، والفهم، واليقين.

يقول ابن تيمية: "فلا بد من هذه الثلاثة : العلم ؛ والرفق ؛ والصبر ؛ العلم قبل الأمر والنهي ؛ والرفق معه، والصبر بعده، وإن كان كل من الثلاثة مستصحبا في هذه الأحوال ؛ وهذا كما جاء في الأثر عن بعض السلف: " لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيها فيما يأمر به؛ فقيها فيما ينهى عنه ؛ رفيقا فيما يأمر به ؛ رفيقا فيما ينهى عنه ؛ حليما فيما يأمر به حليما فيما ينهى عنه".[1]

وينبغي للداعية أن يعلم أن المدعوين أصناف وأقسام: فمنهم الملحد،

(١) الفتاوى مختصراً:(٢٨/ ١٣٧)، وينظر:الاستقامة:(٢/ ٢٣٣)، الحكمة في الدعوة إلى الله، سعيد وهف القحطاني: (١/ ٣٣).

ومنهم المشرك الوثني، ومنهم اليهودي، ومنهم النصراني، ومنهم المنافق، ومنهم المسلم الذي يحتاج إلى التربية والتعليم، ومنهم المسلم العاصي.

ثم هم أيضًا يختلفون في قدراتهم العقلية، والعلمية، والصحية، ومراكزهم الاجتماعية: فهذا مثقف، وهذا أمّيٌ، وهذا رئيس، وهذا مرؤوس، وهذا غني، وهذا فقير، وهذا صحيح، وهذا مريض، وهذا عربي، وهذا أعجمي، فينبغي للداعية أن يكون كالطبيب الحاذق الحكيم الذي يشخص المرض، ويعرف الداء ويحدده، ثم يعطي الدواء المناسب على حسب حال المريض، ومرضه، ويتدرج معه بحسب حاله وواقعه.[1]

ولا شك أن اعتقاد المدعو، ومكانته ومجتمعه وبيئته كلها مما يحكم الداعية في كيفية دعوته، والتدرج معه في الخطاب، فخطاب موسى مع فرعون مع طغيانه في بادئ أمره لم يكن كخطابه بعد استكباره، وتعنته، وسخريته بموسى، وخطاب النبي صلى الله عليه وسلم مع المشركين لم يكن كخطابه مع اليهود فالأولون أصحاب وثنية وجهل، واليهود كانوا أهل كتاب، وعلم يعرفونه كما يعرفون أبنائهم.

والناظر في أسلوب القرآن الكريم: يجد تنوعاً عجيباً في الأسلوب، وتفاوتاً بديعاً في الطرح، ومعالجة ناجحة لكل أصناف البشرية.

يقول سيد قطب في كلام بديع: (كان هذا القرآن يُواجه به النفوس في مكة، ويروضها حتى تسلس قيادها، راغبة مختارة، ويرى أنه كان يواجه النفوس بأساليب متنوعة، تنوعاً عجيباً.. تارة يواجهها بما يشبه الطوفان

(١)أصول الدعوة، لعبد الكريم زيدان: (٣٦٥)، وينظر: مراعاة أحوال المخاطبين فضل إلهي ظهير: (١٥).

الغامر، من الدلائل الموحية، والمؤثرات الجارفة.. وتارة يواجهها، بما يشبه السياط اللاذعة تلهب الحس، فلا يطيق وقعها، ولا يصبر على لذعها! وتارة يواجهها بما يشبه المناجاة الحبيبة، والمسارَّة الودودة، التي تهولها المشاعر، وتأنس لها القلوب..! وتارة يواجهها بالهول المرعب، والصرخة المفزعة، التي تفتح الأعين على الخطر الداهم القريب...، ومئات من اللمسات، ومئات من اللفتات، ومئات من الهتافات، ومئات من المؤثرات.. يطلع عليها قارئ القرآن، وهو يتبع تلك المعركة الطويلة، وذلك العلاج البطيء، ويرى كيف انتصر القرآن على الجاهلية في تلك النفوس العصيّة العنيدة).[1]

وهكذا فإن من يتأمل التدرج في الدعوة يجد أنها على ضربين:

الأول: تدرج في خطاب المدعوين: وذلك كتدرج النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته للمشركين، حيث بدأ بالتوحيد، والبعث، والأدلة العقلية على ذلك، وانتقل إلى التهديد والوعيد بذكر الأمم السابقة وما حصل لهم من العقوبات عندما أعرضوا عن أنبيائهم.

ثم انتقل إلى الدعوة بالسيف والقتال، وأيضاً من جهة أخرى بالدعوة السرية ثلاث سنوات ثم انتقل إلى الدعوة الجهرية، ثم هاجر إلى المدينة، وأقام المجتمع المدني المسلم.

الثاني: تدرج في التشريع: ونستطيع قسمه إلى نوعين:

النوع الأول: تدرج في الأحكام الشرعية عامة:

حيث بدأ في مكة بالتوحيد والعقيدة، وتقريرهما في نفوس الناس، ثم

(١) في ظلال القرآن: (٦/ ٣٦٩٢).

أمر بالصلاة في ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة، ثم شرع الآذان والقتال، وبعض أحكام النكاح كالصداق والوليمة في السنة الأولى من الهجرة، وفي السنة الثانية شرع الصوم، وصلاة العيدين، ونحر الأضاحي، والزكاة، وحولت فيها القبلة، وشرع قصر الصلاة في السفر والخوف في السنة الرابعة، وأنزل الله أحكام التيمم، والقذف، وفرض الحج، وهكذا إلى اكتمال التشريع.(١)

النوع الثاني: تدرج في الحكم الشرعي الواحد:

ومن أمثلته في الأمر فرض الصلاة والصيام والجهاد في سبيل الله، وفي المحرمات: تحريم الخمر فقد أخذت هذه الأحكام أطوارا مختلفة حتى وصلت إلى التحريم.(٢)

والذي يعنينا في هذا البحث من هذه الأنواع ليس هو التدرج في التشريع، وإنما التدرج في الخطاب الدعوي بحسب حال المدعو، وقبوله، وقربه وبعده.

إن كل ما سبق عرضه يؤكد أهمية التدرج في الدعوة، وحاجة الداعية إلى هذا الجانب مع المدعوين، وأنه كان حاضرا في تطبيقات الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم.

(١) تاريخ الفقه الإسلامي: عمر الأشقر: (٤٨).

(٢) ينظر: التدرج في دعوة النبي للمطلق: (٢١)، فقه التدرج في التشريع فهما وتطبيقا، معاوية سيد: (١٢)، منهج الدعوة، د. عدنان عرعور: (٧٤).

المبحث الثالث:
التدرج في الدعوة إلى الله في خطاب الأنبياء عليهم السلام:

بعد هذه المقدمة في أهمية التدرج في الدعوة إلى الله، وأنواعه، فإن التدرج ينبغي أن يكون ظاهرا في الخطاب الذي يسمعه المدعو من الداعية، وهو ما كان حاضرا في خطاب الأنبياء من خلال القرآن الكريم، ولعلي أعرج هنا على أحد الأمثلة باختصار قبل الانتقال إلى مبحث التدرج في خطاب موسى مع فرعون، لكي يظهر لنا مدى اتفاق الأنبياء عليهم السلام على هذا الأصل، وتطبيقهم له في دعوتهم مع أقوامهم، والأمثلة أكثر من أن تحصر في القرآن الكريم.

التدرج في خطاب إبراهيم مع أبيه:

لاشك أن خطابات إبراهيم مع النمرود، ومع قومه، ومع أبيه[1] تصلح أن تكون قدوة في الدعوة إلى التوحيد، والمناظرة مع المخالفين، وفيها

(١) ينظر الخلاف في مسألة: هل كان آزر والد إبراهيم أم عمه؟ والراجح فيما يظهر: أنه والده. قال أحمد شاكر في تحرير مهم: "والحجة القاطعة في نفي التأويلات التي زعموها في كلمة: "آزر"، وفي إبطال ما سموه قراءات، تخرج باللفظ عن أنه علم لوالد إبراهيم: الحديث الصحيح الصريح في البخاري: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك: لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك ...."، فهذا النص يدل على أنه اسمه العلم، وهو لا يحتمل التأويل ولا التحريف". حاشية تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٨٩)، وينظر: تفسير الطبري: (١١/ ٤٦٨)، تفسير الرازي: (١٣/ ٣١)، فتح الباري: (٨/ ٤٩٩)، التحرير والتنوير: (٧/ ٣١٠)، والحديث رواه البخاري في كتاب الأنبياء، برقم: (٣١٧٢).

من الفوائد والحِكَم مالا يكاد يحصيه المفسر لهذه الآيات، ولعلي أعرِّج في هذه العجالة البحثية على ما يتعلق بأمر التدرج في دعوة إبراهيم لوالده، وهو الذي كان حريصاً أشد الحرص على هدايته، وهو الذي وصفه ربه بأنه كان أمة قانتا، وهو الذي أتم كلمات ربه، وجعله الله إماما للحنفاء، فلنقف إذاً مع خطابه لأبيه، ومحاورته له، وتدرجه في هذا المقام، ولعلي أقسمه إلى أربعة أقسام:

أولاً: أسلوب اللين والملاطفة:

يقول تعالى حاكيا عن إبراهيم خطابه لأبيه في بادئ أمره، ومبتدأ دعوته: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا ﴿٤٥﴾ ﴾ [مريم: ٤١ – ٤٥].

فقد عانى إبراهيم زمانا طويلا مع أبيه في دعوته وإقناعه، وخاطبه مراعيا لأبوته رغم عناده، وفساد اعتقاده، وعظيم انحرافه، ومع ذلك فقد بلغ الغاية في التلطف واللين مع والده في بادئ أمره، مراعياً أبوته، ورئاسته في قومه، وكبر سنه، فدعاه بصفة الأبوة، ليظهر له مدى حرصه على ما ينفعه، ودفع ما يضره.

وفي هذه الآية عدد من الأوجه في تلطف إبراهيم مع والده يمكن إجمالها فيما يلي:

أولاً: تكرار النداء بلفظ الأبوة المشعرة بتوقيره، وعطفه عليه، فلم

يسمه باسمه في أي مرة من هذه النداءات الأربع، ولم يقل يا أبي، بل عبر بقوله: (يا أبت)، وهي أرق في التلطف واللين.

ثانياً: في قوله: ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾ [مريم: ٤٢].

أخرج الكلام مخرج السؤال، ولم يخرجه مخرج الأمر والنهي، مع بيان ضلاله وانحرافه، فلم يجزم بصواب رأيه، وذلك أقرب للإجابة، والتأثر من والده.

ثالثاً: في قوله: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ لم يرمه بالجهل والسفه، وهو مستحق لذلك، بل نسبه لعلم غير الذي أتى به إبراهيم عليه السلام، وفي هذا من التواضع ونسبة العلم لوالده مع عظيم جهله، ولم ينسب إبراهيم العلم لنفسه، بل نسبه لله -جل وعلا-، ثم قال: ﴿ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴾ وهو كقول موسى لفرعون: ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [النازعات: ١٩] أي: إنما أنا دليل لك إلى الله -جل وعلا-.

رابعاً: في قوله: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾ [مريم: ٤٥]. عدة عبارات من التلطف والملاينة؛ فنسب إبراهيم الخوف إلى نفسه دون أبيه كما يفعل الحزين الخائف على من يشفق عليه.

وقال: ﴿ يَمَسَّكَ ﴾ فذكر لفظ المس الذي هو أدنى الملامسة، فدل على شدة حرصه على سلامته من أدنى عذاب، ونكّر العذاب، والتنكير هنا للتقليل، ثم ذكر الله -جل وعلا- باسم الرحمن، ولم يقل الجبار، ولا القهار

ترغيباً له في التوبة، وأنه عز وجل يقبل توبة التائبين، وتنفيراً له من عبادة الشيطان لأنها تحرمك من رحمة الله عز وجل، ولأن العقوبة من الحليم الرحيم أشد، فأي خطاب ألطف وألين من هذا.[1]

قال ابن القيم: (وكذلك سائر خطاب الأنبياء لأمتهم في القرآن إذا تأملته وجدته ألين خطاب، وألطفه).[2]

وقال الزمخشري مصورا ذلك الخطاب البلاغي القرآني اللطيف بأحسن تصوير: (انظر حين أراد أن ينصح أباه، ويعظه فيما كان متورّطاً فيه من الخطأ العظيم، والارتكاب الشنيع الذي عصا فيه أمر العقلاء، وانسلخ عن قضية التمييز، ومن الغباوة التي ليس بعدها غباوة: كيف رتب الكلام معه في أحسن اتساق، وساقه أرشق مساق، مع استعمال المجاملة، واللطف، والرفق، واللين، والأدب الجميل، والخلق الحسن، منتصحاً في ذلك بنصيحة ربه عز وعلا).[3]

وقد كان جواب الأب غليظا بمنتهى الجفاء والكبر بعكس ما في كلام إبراهيم من اللين والرقة، فدل ذلك على أنه كان قاسي القلب بعيد الفهم، شديد التصلب في الكفر، ومع ذلك فقد كان إبراهيم عليه السلام مستمرا على نهجه في اللين والسكينة.

---

(١) بدائع الفوائد: (٣/ ٦٥٢)، بدائع التفسير: (٣/ ١٤٢)، البحر المحيط: (٦/ ١٤٣)، تفسير الشعراوي: (١٥/ ٩٠٩٧).

(٢) بدائع الفوائد: (٣/ ٦٥٢).

(٣) الكشاف: (٣/ ٢٠-٢١)، وينظر البحر المحيط: (٦/ ١٤٣)، في ظلال القرآن: (٤/ ٢٣١١)، التحرير والتنوير: (١٦/ ٤٥).

فانظر إلى عظم جهل هذا الرجل مع اعتقاده بكمال عقله وعبادته، مع إن إبراهيم عليه السلام كان متلطفا معه في دعوته مرغبا له في الإيمان بألين عبارة، وأرق لفظ، ومع ذلك لم يكن سبباً في استجابته بل زاد إعراضاً، واستنكافاً.

ثانياً: أسلوب الحجة والبرهان:

الملاحظ في خطاب إبراهيم عليه السلام مع رقته والعاطفة التي امتلأت به؛ إلا أنه امتلأ بالأدلة والبراهين العقلية، والحجج الداحضة، فلم يكن خطاباً عاطفياً فقط، بل تخللته أدلة مقنعة، فخطاب اللين ينبغي أن لا يفارق خطاب الإقناع والجدال بالتي هي أحسن، والمحاورة العقلية المقنعة لكل منصف، ومريد للحق.

وهذا يظهر في عدة أدلة وبراهين عقلية:

أولها: قوله: ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ﴾[مريم: ٤٢].

فهذه الأصنام التي تعبدها ناقصة في ذاتها، فلا تسمع ولا تبصر، ولا تملك لأحد نفعاً ولا ضراً، بل لا تملك لأنفسها شيئاً، فهذا برهان واضح، ودليل مقنع على أن عبادة الناقص مستقبح عقلاً وشرعاً، ودل بتنبيهه وإشارته أن الذي يستحق العبادة من له الكمال والجلال، وهو الله تعالى.[1]

الثاني: بعد أن نبهه إلى أن الأوثان تنزل عن مقام الألوهية بصفاتها، بل حتى الإنسانية، بل الحيوانية أخذ يوجهه إلى الحق الكامل، والعلم

(١)تفسير السعدي: (٤٩٤)، وينظر: تفسير الرازي: (٢١/ ٥٤٥)، تفسير أبي السعود: (٥/ ٢٦٧)، روح المعاني: (١٦/ ٥٥١)، في ظلال القرآن: (٤/ ٢٣١١).

الصحيح، وكما قيل التخلية قبل التحلية.

وبين له أن ما يذكره ليس تعالما منه، أو أنه أكثر منه علما، أو فضلا، لئلا يستنكف القبول منه، بل هي رسالة كُلِّف بإبلاغها، ممن هو أعلى مني ومنك وهو الله -جل وعلا-، وهو اعتذار رقيق منه لوالده فالمسألة لا تحتمل الاجتهاد والنظر، وإنما هو علم وحق من الله ضد عدوه الشيطان، فأوضح له بأتم بيان مرجع هذا العلم لئلا يشكك في حقيقة هذا العلم، ومصدريته.(١)

الثالث: صوّر له فعله بعبادة غير الله بصورة ينفر منها كل عاقل، وهي أنها في الحقيقة عبادة للشيطان، لأن عبادتك لغير الله من الأصنام هي في الحقيقة عبادة للشيطان لأنه هو الآمر بها، وهو الذي يغريك ويزينها لك.

"ولا ريب في أن المطيع للعاصي عاص، وكل من هو عاص حقيق بأن تسترد منه النعم وينتقم منه".(٢)

فتأمل في التدرج الذي نهجه إبراهيم عليه السلام في دعوته لوالده بتحذيره من عبادة الأصنام بخطاب عقلي، ثم بيان عاقبة هذه العبادة بالتخويف من العذاب، ثم الهجر لوالده مع وعده بالدعاء والاستغفار له قبل نهيه عن ذلك.

قال السعدي: "فتدرج الخليل عليه السلام بدعوة أبيه، بالأسهل فالأسهل، فأخبره بعلمه، وأن ذلك موجب لاتباعك إياي، وأنك إن

(١) ينظر: تفسير الشعراوي: (١٥/ ٩٠٩٨)، روح المعاني: (١٦/ ٥٥١)، في ظلال القرآن: (٤/ ٢٣١١).

(٢) روح المعاني: (١٦/ ٥٥١)، وينظر: المصادر السابقة.

أطعتني، اهتديت إلى صراط مستقيم، ثم نهاه عن عبادة الشيطان، وأخبره بما فيها من المضار، ثم حذره عقاب الله ونقمته إن أقام على حاله، وأنه يكون وليا للشيطان، فلم ينجع هذا الدعاء بذلك الشقي، وأجاب بجواب جاهل وقال: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾".[١]

"وهكذا انتهتْ هذه المحاورة التي احتوتْ أربعة نداءات حانية، وجاءت نموذجاً فريداً للدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة؛ فراعتْ مشاعر الأب الذي يدعوه ولده، ويُقدِّم له النُّصْح، ورتبت الأمور ترتيباً طبيعياً، وسَلْسَلَتْها تسلْسُلاً لطيفاً لا يثير حفيظة السامع ولا يصدمه".[٢]

ثالثاً: أسلوب الغلظة والشدة:

هذه الدرجة من اللين، والإقناع بالحجة، والبرهان كانت في مرحلة أولى لإبراهيم مع أبيه، تلطفا له وخطابا عقليا مقنعا، لكنه ما لبث أن أعلن بوضوح التبرؤ منه، وبيان ضلاله الواضح البين، وذلك بعد أن رأى مدى الإعراض منه، والتكبر عن الحق، فتغيرت لغة إبراهيم عليه السلام مع أبيه إلى الغلظة والشدة لما كان ذلك هو الأصلح في حقه.

قال تعالى حاكيا تلك المرحلة: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنعام: ٧٤].

فكانت تلك الغلظة والشدة من إبراهيم تجاه والده لمساسه بأصل من أصول التشريع وهو الاعتقاد والتوحيد، وعناده، وإصراره على الشرك.

(١) تفسير السعدي: (٤٩٤).

(٢) تفسير الشعراوي: (١٥/ ٩١٠٠).

يقول ابن عاشور في كلام تأصيلي نفيس لتعليل شدة إبراهيم مع أبيه في الخطاب في هذه الحال، وأنه كان في آخر أمره بعد أن بذل له النصح واللين، وأن ذلك لا ينافي البر بوالده، يقول: (وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْحُكِيَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَوْقِفٌ مِنْ مَوَاقِفِ إِبْرَاهِيمَ مَعَ أَبِيهِ، وَهُوَ مَوْقِفُ غِلْظَةٍ، فَيَتَعَيَّنُ أَنّه كَانَ عِنْدمَا أَظْهَرَ أَبُوهُ تَصَلُّبًا فِي الشِّرْكِ. وَهُوَ مَا كَانَ بَعْدَ أَنْ قَالَ لَهُ أَبُوهُ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾...، وَمُبَاشَرَتُهُ إِيَّاهُ بِهَذَا الْقَوْلِ الْغَلِيظِ كَانَتْ فِي بَعْضِ مُجَادَلَاتِهِ لِأَبِيهِ بَعْدَ أَنْ تَقَدَّمَ لَهُ بِالدَّعْوَةِ بِالرِّفْقِ، كَمَا حَكَى اللهُ عَنْهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مَرْيَم: ٤٢-٤٧]. فَلَمَّا رَأَى تَصْمِيمَهُ عَلَى الْكُفْرِ سَلَكَ مَعَهُ الْغِلْظَةَ اسْتِقْصَاءً لِأَسَالِيبِ الْمَوْعِظَةِ لَعَلَّ بَعْضَهَا أَنْ يَكُونَ أَنْجَعَ فِي نَفْسِ أَبِيهِ مِنْ بَعْضٍ فَإِنَّ لِلنُّفُوسِ مَسَالِكَ، وَلِمَجَالِ أَنْظَارِهَا مَيَادِينُ مُتَفَاوِتَةٌ،...، فَحَكَى اللهُ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَعْضَ مَوَاقِفِهِ مَعَ أَبِيهِ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ مَا يُنَافِي الْبُرُورَ بِهِ لِأَنَّ الْمُجَاهَرَةَ بِالْحَقِّ دُونَ سَبٍّ وَلَا اعتداء لَا يُنَافِي الْبُرُورَ).[1]

وظهر في الآية السابقة مدى إنكار إبراهيم على والده، وشدته من وجوه:

أولاً: الهمزة في قوله: ﴿أَتَتَّخِذُ﴾، للاستفهام الإنكاري ففيها إشارة

(١) التحرير والتنوير: (٧/ ٣١٢-٣١٤)، وينظر: تفسير النيسابوري: (٣/ ٢٩٥)، حاشية الشهاب الخفاجي: (٤/ ٨٣)، محاسن التأويل: (٤/ ٤٠٠).

بالغلظة والشدة المناسبة لحال والده.

ثانياً: فعل: ﴿أَتَتَّخِذُ﴾ على وزن: (تفعّل) من الأخذ، ففيه تكلُّف للمبالغة في الاتخاذ من أبيه آزر والإصرار على ذلك، "وفي فعل: ﴿أَتَتَّخِذُ﴾: إشعار أيضاً بأن ذلك شيء مصطنع مفتعل، وأن الأصنام ليست أهلا للإلهية، وفي ذلك تعريض بسخافة عقله أن يجعل إلهه شيئا هو صنعه".(١)

ثالثاً: في قوله: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوۡمَكَ﴾، تأكيد لخبر الضلال بما يزيل الشك من نفس والده، وأنه بعيد عن الطريقة السوية.

رابعاً: "وَالرُّؤْيَةُ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ بَصَرِيَّةً قُصِدَ مِنْهَا فِي كَلَامِ إِبْرَاهِيمَ أَنَّ ضَلَالَ أَبِيهِ، وَقَوْمِهِ صَارَ كَالشَّيْءِ الْمُشَاهَدِ لِوُضُوحِهِ فِي أَحْوَالِ تَقَرُّبَاتِهِمْ لِلْأَصْنَامِ مِنَ الْحِجَارَةِ فَهِيَ حَالَةٌ مُشَاهَدٌ مَا فِيهَا مِنَ الضَّلَالِ".(٢)، ووصْفه لقومه أيضاً بهذا الوصف حتى لا يغتر بموافقتهم له أنه على صواب وحق.

خامساً: وصْف الضلال بالواضح البين نداء على فساد عقولهم، حيث يراه كل مشاهد وصاحب عقل، ومع ذلك لم يتفطنوا له دلالة على سخف عقولهم.

وأورد الآلوسي الإشكال في مدى موافقة إبراهيم للصواب في غلظته مع والده، وهل يعد ذلك من العقوق، ثم أجاب فقال: (وأجيب: بأن هذا ليس من الإيذاء المحرم في شيء، وليس مقتضى المقام إلا ذاك،.. وقد يقسو

(١) التحرير والتنوير: (٦/ ١٧٢)، وينظر: زهرة التفاسير، لأبي زهرة: (٥/ ٢٥٦٠).
(٢) التحرير والتنوير: (٧/ ٣١٤).

الإنسان أحيانا على شخص لمنفعته كما قال أبو تمام:

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم[1]

...، وكون الرفق أكثر تأثيرا غير مسلّم على الإطلاق فإن المقامات متفاوتة كما ينبيء عن ذلك قوله تعالى لنبيه عليه الصلاة و السلام تارة: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[النحل: ١٢٥]، وأخرى: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التحريم: ٩]".[2]

والذي وصف والده بهذه الأوصاف هو القدوة وإمام الحنفاء، والموقف موقف اقتداء وائتساء، وهو الذي وصفه الله بالسماحة والحلم فقال: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤﴾ [التوبة: ١١٤]، ولكنه التوحيد والعقيدة فوق الأبوة والبنوة، وفوق اعتبارات الحلم والعاطفة، وإبراهيم هو الأسوة وإمام الحنفاء الذي أمر الله المسلمين من بنيه أن يتأسوا به، والقصة تعرض لتكون أسوة ومثالاً.

ثم أعلن إبراهيم بعد ذلك المفاصلة، والبغض، والعداوة إعلاناً لا مداراة فيه، ولا مداهنة، وهو أسلوب آخر من أساليب التبرؤ ممن تكبر، وجاهر بالعداوة للدين، وذلك كله بعد تعرضه لمحاولة القتل والتحريق، فحكى الله -جل وعلا- موقفه الأخير: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٧].

(١) البيت لأبي تمام ينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري: (٧/ ٢١٩).
(٢) روح المعاني: (٧/ ١٩٥).

رابعاً: أسلوب الهجر والمتاركة:

لما بين إبراهيم لأبيه فساد اعتقاده، وضلال فعله، وأنه مخالف للعقل الصحيح، وأنه طاعة للشيطان، وحذره عاقبة فعله بالعذاب من الله عز وجل في الآخرة، لم يكن من أبيه إلا الاستكبار والإعراض، بل والتوعد بالرجم، والطرد، والقتل، فكان مقابلاً للإحسان بالإساءة، والسوء فدل على جهله، وسفهه.

قال الزمخشري مصوراً لين إبراهيم، مع فظاظة والده: (لما أطلعه على سماجة صورة أمره، وهدم مذهبه بالحجج القاطعة، وناصحه المناصحة العجيبة مع تلك الملاطفات، أقبل عليه الشيخ بفظاظة الكفر، وغلظة العناد، فناداه باسمه، ولم يقابل (يا أبت) بيابنيّ، وقدّم الخبر على المبتدأ في قوله: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾[مريم: ٤٦] لأنه كان أهمّ عنده وهو عنده أعنى، وفيه ضرب من التعجب، والإنكار لرغبته عن آلهته، وأن آلهته، ما ينبغي أن يرغب عنها أحد).[1]

فلما تبين عندها لإبراهيم مدى شقاوة والده، وإعراضه عن الحق، واتباعه لهواه، اختار الهجر له مع الدعاء له بالهداية، والاستغفار له -قبل أن ينهى عن ذلك -، ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾﴾ [مريم: ٤٧ -٤٨].

ومن بره بوالده أن سبق الهجر بالتوديع والمتاركة علامة على الحزن

(١) الكشاف: (٣/ ٢٢)، تفسير الرازي: (٢١/ ٥٤٧).

والتأسف عليه، ومن حلم إبراهيم أن استمر لينه مع والده، وإحسانه في معاملته إلى آخر لحظة.

والمراد بالسلام: السلامة من كل ضرر ديني، ودنيوي: و"على" للاستعلاء المجازي، وهو التمكن. وهي كلمة تحية وإكرام.

ومع هذه المفارقة فقد أظهر إبراهيم حرصه على هداه فقال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ أي: أطلب منه لك المغفرة من هذا الكفر، بأن يهديه الله إلى التوحيد فيغفر له الشرك الماضي، وذلك أن إبراهيم لم يكن قد تلقى نهيا من الله عن الاستغفار للمشرك.

وفعل إبراهيم بهجره لوالده، وقومه فيه إشارة ظاهرة من إبراهيم لهم أن ذلك الهجر لا يسوؤه، ولا يضره إذا كان ذلك في ذات الله ولمرضاته، وهذا دليل على جواز هجر المنصوح إذا ظهر منه الجدال، واتباع الهوى.[1]

يقول السعدي: "وقد أمرنا الله باتباع ملة إبراهيم، فمن اتباع ملته، سلوك طريقه في الدعوة إلى الله، بطريق العلم، والحكمة، واللين، والسهولة، والانتقال من مرتبة إلى مرتبة، والصبر على ذلك، وعدم السآمة منه، والصبر على ما ينال الداعي من أذى الخلق بالقول والفعل، ومقابلة ذلك بالصفح والعفو، بل بالإحسان القولي والفعلي".[2]

والناظر بتأمل في قصص الأنبياء ودعوتهم لأقوامهم يجد أن هذا الأصل الأصيل، وهو التدرج في خطابهم الدعوي كان حاضرا لديهم، وفي

(١) تفسير الرازي: (٢١/ ١٩٥)، وينظر: السراج المنير للشربيني: (٢/ ٤٧٤)، اللباب في علوم الكتاب: (١٣/ ٧٨).

(٢) تفسير السعدي: (٤٩٤).

تطبيقاتهم مما يدل على عظمه في الوصول لهداية الناس، وإقناعهم بالخير، ودلالتهم عليه، وما ذكرته من المثال مع إبراهيم فهو متوافر في قصته مع قومه، ومع النمرود، وفي قصة نوح مع قومه، وفي دعوة النبي صلى الله عليه وسلم مع كفار قريش، وسيأتي تفصيل أكثر لهذا الجانب في قصة موسى مع فرعون.

المبحث الرابع:
خطاب موسى مع فرعون باللين والملاطفة:

إن قصة موسى مع فرعون هي أكثر قصص القرآن تكراراً، وفيها من العبر والعظات ما يعجز عن حصره العلماء، ولا غرو فهي عرض أبلغ كتاب وأحسنه، وأحكمه، وأكثره بياناً، ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

وقد كانت رسالة من الله -جل وعلا- إلى أشد الناس طغياناً، وصلفاً، وغروراً، فكان من الطبيعي أن تكون الرسالة على يدي رجل من أولي العزم من الرسل، آتاه الله الحكمة في الدعوة، مع الشدة والقوة في الخطاب في مواجهة فرعون، وعضده بأخيه هارون ليكون معيناً له في هذه المهمة الشاقة، وكان من أهم الأصول التي انتهجها موسى مع فرعون التدرج في الخطاب، والإقناع بالحجة والبرهان.

وقد صوّر القرآن الكريم هذا التدرج أحسن تصوير بأبلغ بيان، وأحسن تبيان، ليكون قدوة للدعاة في هذا الباب، ومما زاده حسناً، وروعة تلك الوقفات التي وقفها المفسرون، والبلاغيون فأظهرت جانبا مهما من البلاغة في خطاب الأنبياء، وجانباً آخر في فوائد تلك الآيات، وعبرها للدعاة إلى الله عز وجل.

وسوف نحاول الوقوف مع أهم تلك الآيات التي تحكي وتصور لنا بوضوح تلك المراحل والتدرج في دعوة موسى لفرعون، فلن نستطيع الوقوف مع جميع الآيات لكثرتها وتوافرها.

إن موسى عليه السلام يعد مثالاً لمراعاة التدرج الدعوي نظراً لمكانة فرعون ومنزلته، فمع شدة طغيان فرعون وظلمه وادعائه الألوهية، وقتله لأبناء بني إسرائيل واستحيائه لنسائه، إلا أن الله عز وجل قد أمر موسى بلين الخطاب معه بداية، ووعْظه وتذكيره مع سابق علم الله له بعدم الاهتداء.

ولا ريب أن اللين من شعار الدعوة إلى الحق، لأن صاحبه عالم بصحة منهجه وبرهانه، وقد أرشد الله إليه في عدد من الآيات، وهو الغالب من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[النحل: ١٢٥]، وقال -جل وعلا-: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران:١٥٩].

يقول -جل وعلا - آمرا كليمه موسى -عليه السلام-: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه: ٤٤].

والقول اللين: هو الكلام الدال على معاني الترغيب، والعرض بأحسن عبارة وألطفها، بأن يظهر المتكلم للمخاطب أن له من سداد الرأي ما يتقبل به الحق، ويميز به بين الحق والباطل، مع تجنب أن يشتمل الكلام على تسفيه رأي المخاطب، أو تجهيله لأن ذلك ينفره من الحق، ولو كان ظاهراً جلياً.[1]

(١) التحرير والتنوير: (١٦/ ١٢٤)، وينظر: تفسير ابن كثير: (٥/ ٢٩٥)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١٧)، فتح القدير: (٣/ ٥٢٤).

يقول ابن كثير: (هذه الآية فيها عبرة عظيمة، وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار، وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر ألا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين).[1]

وتفاعل الشنقيطي مع هذا الأسلوب الدعوي فقال: (وَهَذَا، وَاللهَّ غَايَةُ لِينِ الْكَلَامِ وَلَطَافَتِهِ وَرِقَّتِهِ).[2]

ومن أقوال المفسرين عند معنى القول اللين في هذه الآية ما يستدعي الوقوف والنظر كقول الحسن البصري: "هو قولها: إن لك ربًّا، وإن لك معاداً، وإن بين يديك جنة وناراً فآمنْ بالله يدخلك الجنة، ويقك عذاب النار".[3]

وقال ابن عباس: كنّياه، وقيل: "أمرهما تعالى أن يقدما الوعد على الوعيد".[4]

وكل هذه الأقوال من باب التمثيل للقول اللين، وهي داخلة في عموم الآية، ولاشك أن تقديم الترغيب على الترهيب، وتذكيره بالآخرة، وتكنية المدعو، وعدم تسميته باسمه أقرب في إجابته خاصة إذا كان من أهل المكانة والمنصب.

وقد حاول إسماعيل حقي أن يجمل أهم أسباب هذا القول اللين من موسى لفرعون، وتحرير سبب الأمر باللين في هذا الموضع فقال في تفسيره

(١) تفسير ابن كثير: (٥/ ٢٩٤)، وينظر: روح المعاني: (١٦/ ١٩٤).
(٢) أضواء البيان: (٤/ ١٥).
(٣) تفسير ابن أبي حاتم: (٩/ ٢٨٢).
(٤) تفسير الطبري: (١٨/ ٣١٣)، وينظر: تفسير الرازي: (٢٢/ ٥١).

للآية: " أي: كلماه باللين والرفق من غير خشونة ولا تعنيف، "ويسرا ولا تعسرا" ؛ فإنه ما دخل الرفق في شيء إلا وقد زانه، وما دخل الخرق[١] في شيء إلا وقد شانه،.. وأيضاً إن فرعون كان من الملوك الجبابرة، ومن عادتهم أن يزدادوا عتواً إذا خوشنوا في الوعظ فاللين عندهم أنفع وأسلم،... فلو كان في قول موسى خشونة لم يحتمل طبع فرعون، بل هاج غضبه فلعله يقصد موسى بضرب أو قتل".[٢]

والقول اللين لا يعني التنازل أو التملق كما يفهم البعض، وإنما يكون بالحفاظ على المبادئ، وإلا كان مداهنة وتنازلاً مذموماً، وعندها ستتغير الحقائق وتسمى بغير اسمها، ولا يميز المتبصر بين الحق والباطل، ولا بين الصواب والخطأ.

ومن فوائد القول اللين أيضاً: أنه لا يثير العزة بالإثم؛ ولا يهيج الكبرياء المدَّعى الذي يعيش به الطغاة، ومن شأنه أن يحيي القلب فيتذكر، ويخشى عاقبة الطغيان.[٣]

وقد ذكر جمهور المفسرين منهم: ابن مسعود رضي الله عنه من أمثلة هذا القول اللين ما جاء في سورة النازعات: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: ١٨ – ١٩].[٤] وهذه العبارة غاية في

(١) الخَرْق: الشق في الحائط والثوب. لسان العرب: (١٠/ ٧٣).

(٢) روح البيان: (٥/ ٣٨٩)، وينظر: البحر المحيط: (٦/ ١٧٨)، تفسير السعدي: (٥٠٦)، تفسير ابن كثير: (٥/ ٢٩٥).

(٣) في ظلال القرآن: (٤/ ٢٣٣٦).

(٤) ينظر: تفسير القرطبي: (١١/ ٢٠٠)، تفسير الرازي: (٢٢/ ٥١)، تفسير البغوي: =

التلطف مع فرعون والتحبب إلى هذا الطاغية، وللمفسرين وقفات بديعة مع هذه الآية في أوجه التلطف من موسى عليه السلام.

يقول ابن القيم في كلام بديع ننقله بطوله عند هذه الآية: (**ففي هذا من لطف الخطاب ولينه وجوه:**

أحدها: إخراج الكلام مخرج العرض، ولم يخرجه مخرج الأمر والإلزام، وهو ألطف، ونظيره قول إبراهيم لضيفه المكرمين: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ ولم يقل كلوا.

الثاني: قوله: ﴿ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴾ والتزكي: النماء، والطهارة، والبركة، والزيادة، فعرض عليه أمرا يقبله كل عاقل، ولا يرده إلا كل أحمق جاهل.

الثالث: قوله: ﴿ تَزَكَّىٰ ﴾، ولم يقل: أزكيك فأضاف التزكية إلى نفسه، وعلى هذا يخاطب الملوك.

الرابع: قوله: ﴿ وَأَهْدِيَكَ ﴾ أي: أكون دليلا لك، وهاديا بين يديك فنسب الهداية إليه والتزكي إلى المخاطب.

الخامس: قوله: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ فإن في هذا ما يوجب قبول ما دل عليه، وهو أنه يدعوه، ويوصله إلى ربه فاطره وخالقه الذي أوجده، ورباه بنعمه جنيناً وصغيراً وكبيراً، وآتاه الملك، وهو نوع من خطاب الاستعطاف والإلزام.

السادس: قوله: ﴿ فَتَخْشَىٰ ﴾ أي: إذا اهتديت إليه وعرفته؛ خشيته لأن من عرف الله خافه، ومن لم يعرفه لم يخفه فخشيته تعالى مقرونة بمعرفته،

= (٣/ ٢٦٣)، التحرير والتنوير: (١٦/ ٢٢٥).

وعلى قدر المعرفة تكون الخشية.

السابع: أن في قوله: ﴿ هَل لَّكَ ﴾ فائدة لطيفة، وهي: أن المعنى هل لك في ذلك حاجة أو أرب، ومعلوم أن كل عاقل يبادر إلى قبول ذلك لأن الداعي إنما يدعو إلى حاجته، ومصلحته لا إلى حاجة الداعي؛ فكأنه يقول: الحاجة لك، وأنت المتزكي، وأنا الدليل لك والمرشد لك إلى أعظم مصالحك).[1]

فهذه سبعة أوجه في التلطف من موسى مع فرعون لإقناعه، وتحبيب الإيمان له، وكسب ود قلبه، لإقامة الحجة عليه.

ومما يسترعي الانتباه في هذا الخطاب كثرة استخدام المقدمات في الخطاب، فلم يقل: "هل تزكى"، أو "هل لك أن تزكى"، لكن جاء التعليم مستخدما أطول مقدمات في العرض قبل طلب التزكية، فجاء في المقدمات: "هل" عرض بالاستفهام، و"لك" إطناب، و"إلى أن" إطناب آخر، وكل هذه المقدمات لأجل تقبل المطلوب في العرض وهو قوله: (تزكّى).[2]

ومن الاستنباطات البديعة في ذلك أن موسى عليه السلام لم يذكر له اسم الله بالعلمية تلطفا معه حتى لا ينفر من التوحيد، فكان قوله: (إلى ربك)، أمرا متفقا عليه بينهما، لأن فرعون يعلم أن له ربا، ولم يسمه بالاسم المعروف في كتب بني إسرائيل، كل ذلك استنزالا لطائره، حتى إذا سمع قوله ودليله بعد ذلك داخله الإيمان على التدريج، وهو أسلوب غاية في

(١) التبيان في أقسام القرآن باختصار يسير: (٢/ ١٤١-١٤٢)، وينظر: بدائع التفسير: (٥/ ١٢١)، الكشاف: (٤/ ٦٩٦)، تفسير الرازي: (٣١/ ٣٧)، روح المعاني: (٣٠/ ٢٩).

(٢) معارج التفكر ودقائق التدبر، للميداني: (١٥/ ٥٣)، (٨/ ١١٨).

الحكمة الدعوية، مع عدم التنازل عن الدعوة إلى التوحيد والعقيدة الصحيحة.[1]

وهو أيضا أسلوب من الأساليب البديعة في الدعوة والمناظرة والجدل في الانطلاق بداية بالمتفق عليه، ثم الانتقال للمختلف فيه.

ومما فسرت به هذه الآية مما هو داخل في القول اللين ما جاء في قوله تعالى: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه: ٤٧].

وللمفسرين في هذه الآية قولان:

الأول: أن هذا السلام من تتمة كلام الله لموسى وهارون، فالجملة وقفت عند قوله: ﴿ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾.

الثاني: أن هذا القول تتمة لأمر الله عز وجل لموسى وهارون بالسلام على من اتبع الهدى، فيكون فيه نوع ترغيب له بالإسلام، وتخويف من الإعراض، وهذا القول هو ظاهر كلام أكثر المفسرين كابن عطية، والرازي، والآلوسي، وابن عاشور، واكتفى به ابن كثير، والشنقيطي، وغيرهم، وهو الظاهر من سياق الآية.[2]

---

(١) في مسألة هل كان لفرعون إله يعبده؟ قولان للسلف: فذهب الحسن البصري وغيره إلى أن فرعون كان يعبد آلهة، واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧] أي: معبودك، وذهب ابن عباس إلى أن فرعون كان يُعبد ولا يعبد، واستدل بقول فرعون في قوله تعالى: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القصص: ٣٨]، مع جحود فرعون وإنكاره لوجود إله موسى كما لا يخفى.

(٢) ينظر الأقوال في: المحرر الوجيز: (٤/ ٥٨)، تفسير الرازي: (٢٢/ ٥٤)، البحر المحيط: =

وهذه الجملة مقدمة، واحتراس لما بعدها من التخويف بالعذاب: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ [طه: ٤٨].

والمعنى: السلام المستتبع لسلامة الدارين من الله تعالى والملائكة، وغيرهم من المسلمين على من اتبع الهدى بتصديق آيات الله تعالى الهادية إلى الحق، وفيه من ترغيبه في اتباعهما على ألطف وجه مالا يخفى.(١)

وقد ذكر جماهير المفسرين أن السلام هنا ليس المراد به التحية، لأن فرعون لم يكن حينئذ موجودا، وَهَذَا كَقَوْلِ النَّبِي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كِتَابِهِ إِلَى هِرَقْلَ: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلاَمِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ).(٢)

وَيُفْهَمُ مِنَ الْآيَةِ: أَنَّ مَنْ لَمْ يَتَّبِعِ الْهُدَى لَا سَلَامَ عَلَيْهِ، فهي ترغيب بالإسلام، وتعريض بالتوبيخ من الصدود عن الإسلام إذ لا اطمئنان له، ولا أمن إلا به، ولذا قال الزمخشري: "أي وسلام الملائكة الذين هم خزنة الجنة على المهتدين، وتوبيخ خزنة النار والعذاب على المكذبين".(٣)

ولعلي أختم هذا المبحث بكلام بديع لابن القيم تعليقا على هذه الآية،

= (٦/ ٢٣١)، روح المعاني: (١٦/ ١٩٩) التحرير والتنوير: (١٦/ ٢٣٠).

(١) تفسير أبي السعود: (٦/ ١٩)،

(٢) ينظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب: (٧/ ٤٦٤٨)، تفسير القرطبي: (١١/ ٢٠٣)، التحرير والتنوير: (١٦/ ٢٣٠). والحديث رواه البخاري في كتاب بدء الوحي: (١/ ٥)، برقم: (٧).

(٣) الكشاف: (٣/ ٦٨)، وينظر: استغراب أبي حيان لعبارته في البحر: (٦/ ٢٣١)، وتوجيه الآلوسي لها في روح المعاني: (١٦/ ١٩٩).

يقول: "ففيه استدعاء لفرعون، وترغيب له بما جبلت النفوس على حبه، وإيثاره من السلامة، وأنه إن اتبع الهدى الذي جاءه به فهو من أهل السلام...، وتأمل حسن سياق هذه الجمل، وترتيب هذا الخطاب، ولطف هذا القول اللين الذي سلب القلوب حسنه وحلاوته، مع جلالته وعظمته كيف ابتدأ الخطاب بقوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، وفي ضمن ذلك: إنا لم نأتك لننازعك ملكك، ولا لنشركك فيه، بل نحن عبدان مأموران مرسلان من ربك إليك، وفي إضافة اسم الرب إليه هنا دون إضافته إليهما استدعاء لسمعه، وطاعته، وقبوله، كما يقول الرسول للرجل من عند مولاه: (أنا رسول مولاك إليك، وأستاذك) وإن كان أستاذهما معا، ولكن ينبهه بإضافته إليه على السمع والطاعة له ".[1]

كل هذه الآيات السابقة داخلة في جملة القول اللين الذي أمر الله به موسى أن يخاطب به فرعون في بادئ أمره، لأجل كسب ود قلبه، وطلب استجابته لأمر الله، ولكنه لم يزدد إلا طغياناً وعتوا عن أمر الله.

(١) بدائع الفوائد: (٢/ ٣٩٦)، وينظر: بدائع التفسير لابن القيم: (٣/ ١٥٥).

المبحث الخامس:
خطاب موسى مع فرعون بالحجة والبرهان:

لم يكن خطاب الحجة والبرهان والجدال والإقناع مفارقا لخطاب اللين، بل كان معه جنبا إلى جنب، فمع تلطف موسى مع فرعون إلا أنه كان يذكر له الأدلة والبراهين على ألوهية الله عز وجل، واستحقاقه للعبادة، وليس ما نذكره من التدرج بين مبحث اللين والحجة يعني الافتراق بينهما بل كان اللين مرافقا للحجة والبرهان.

ولن أستطيع أن آتي على كل الآيات في مقام الدليل والبرهان بين موسى وفرعون، لكنني سأحاول المرور على أهمها وأظهرها في هذا المقام.

لقد كان موسى عالما بثقل مهمته، وأنه بحاجة إلى من يعينه في جداله وحواره مع فرعون، ولذا طلب ربه معيناً له في الفصاحة حيث كان كما ذكر المفسرون في لسانه لثغة، ولهذا قال: ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [القصص: ٣٤ – ٣٥]

وَمَعْنَى قوله: ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ ﴾ : أن يكون سببا في تصديق فرعون، وملئه بإيضاحه عن الأدلة التي يلقيها موسى في مجادلة فرعون كما يقتضيه قوله: ﴿ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ ﴾ "فإنه فرّع طلب إرساله معه على كونه أفصح لسانا، وجعل تصديقه جواب ذلك الطلب فهو تفريع على

تفريع، وليس للفصاحة أثر في التصديق إلا بهذا المعنى".[1]

ولا ريب أن الفصاحة والبيان لها أثر في إقناع الخصم، وذلك ببيان الحق، وتقرير الحجة بتوضيحها، وتزييف الشبهة، وبيان عوارها، ومجانبتها للصواب.

ولذا فلم يفُتْ الطاغية فرعون أن يعيب موسى بهذا العيب، وأن يستنقصه بعدم إطلاق اللسان بقوله: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الزخرف: ٥٢].

على خلاف بين المفسرين هل أجيب موسى في حل تلك العقدة من لسانه كاملة وهو قول طائفة من المفسرين منهم: أبو السعود، وابن عاشور، أم حل جزءا فقط من عقدة لسانه بما يفقه القول، ويُفهم السامع، وهو ما ذهب إليه الجمهور منهم الحسن البصري، ورجحه القرطبي، وابن كثير، والرازي، وأبو حيان، والسعدي، والشنقيطي.

قال الحسن البصري: ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴾ "قال: حُل عقدة واحدة، ولو سأل أكثر من ذلك أعطي".[2]

وبعد أن آتاه الله سؤله، بشرح صدره، وتيسير أمره، وعضده بهارون، وأعطاه عددا من الآيات التي تدل على صدقه، ونبوته، كالعصا، وإدخال اليد في الجيب، بدأ موسى وهارون بجدال الطاغية وحواره.

---

(١) التحرير والتنوير: (٢٠/ ١١٦).

(٢) ينظر: تفسير القرطبي: (١١/ ١٩٢)، تفسير الرازي: (٢٢/ ٤٣)، البحر المحيط: (٨/ ٢٣)، تفسير ابن كثير: (٥/ ٢٨٢)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١٢)، التحرير والتنوير: (٢٥/ ٢٣١)، أضواء البيان: (٤/ ٨)، تفسير السعدي: (٥٠٤).

أولاً: الآيات المتعلقة بإعلان موسى عن رسالته:

أعلن موسى في بادئ دعوته لفرعون إعلاناً صريحاً ظاهراً عن سبب إتيانه، ومن الذي أرسله، وعن آياته وبرهانه على صدقه وإرساله من الله، وأشار ضمن كلامه إلى أن الله هو رب فرعون، والعالمين جميعاً: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأعراف].

وجاء في آية الشعراء: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الشعراء].

وابتداء موسى كلامه بصيغة التأكيد بحرف: (إنّ) لأن المخاطب مظنة الإنكار، أو التردد القوي في صدق الخبر.

واختيار صفة رب العالمين إبطال لاعتقاد فرعون أنه رب مصر وأهلها، فلما وصف موسى مرسله بأنه رب العالمين شمل فرعون، وأهل مملكته فأبطل موسى دعوى فرعون أنه إله مصر بطريق اللزوم، وهو نقض لأصل من الأصول الفرعونية.

يقول سيد قطب معلقاً على هذا اللقاء: (إنه مشهد اللقاء الأول بين الحق والباطل، وبين الإيمان والكفر . . مشهد اللقاء الأول بين الدعوة إلى (رب العالمين)، وبين الطاغوت الذي يدعي ويزاول الربوبية من دون رب العالمين!.. (يا فرعون).. لم يقل له: يا مولاي! كما يقول الذين لا يعرفون من هو المولى الحق! ولكن ناداه بلقبه في أدب واعتزاز. ناداه ليقرر له حقيقة أمره، كما يقرر له أضخم حقائق الوجود: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

.... إن ربوبية الله للعالمين تعني إبطال شرعية كل حكم يزاول السلطان على الناس بغير شريعة الله وأمره؛ وتنحية كل طاغوت عن تعبيد الناس له من دون الله بإخضاعهم لشرعه هو وأمره).[1]

وكعادة الطاغية في الفرار من المواجهة فقد أعرض فرعون عن إبطال دعوة موسى فعدل إلى تذكيره بمنته عليه: ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾، ثم وبّخه على فعله بقتل القبطي بقوله: ﴿ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ معظما إياها بعدم التصريح بها، أي فِعْلتك العظيمة التي تعرف، والتي لا يليق الحديث عنها بألفاظ صريحة، وخوفه من قتله للقبطي ظناً منه بأن ذلك يقضي على الدعوة من أصلها، وأراد بذلك القدح في نبوته عليه السلام إذ كيف يقتل نفساً، ثم يدعي أنه مرسل من الله، وقصده من هذا الخطاب إفحام موسى كي يتلعثم من خشية فرعون حيث أوجد له سبباً لقتله، ويكون معذورا فيه حيث كفر نعمة الولاية بالتربية، واقترف جرم الجناية على الأنفس.[2]

"يمكننا من خلال الحوار السابق أن نرى المكر الذي تميزت به شخصية فرعون من خلال حواره مع موسى عليه السلام عندما بلّغه رسالة الله، فكان ردّ فرعون خبيثا مراوغا يريد تحويل الحوار عن مجراه، فبدلاً من مجابهة الحجة والبرهان عدل إلى ما ظنّه احتقاراً وازدراءً لموسى".[3]

(١) في ظلال القرآن: (٣/ ١٣٤٦).

(٢) التحرير والتنوير: (١٩/ ١١٠)، تفسير أبي السعود: (٦/ ٢٣٨).

(٣) شخصية فرعون في القرآن، قاسم توفيق: (١٠١)، (٣٠٤)، وينظر: في ظلال القرآن: (٥/ ٢٥٩١)، روح المعاني: (١٩/ ٦٩)، تفسير السعدي: (٥٩٠).

ولم يتوقف موسى عليه السلام عند هذه التهم كثيرا بل صدّقه بكل ثقة بحفظ الله له في بعضها مع رده عبارة الكفر إلى الضلال، وكذّبه في الأخرى، وبدأ بالتهمة الأشد اهتماما بردها أمام الملأ، وهي تهمة القتل: ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾.

قال جمهور السلف: أي من الجاهلين، أي: لم أكن أعلم بتحريم قتل النفس، وذلك قبل إرسالي، وهي كذلك في قراءة ابن مسعود: (وأنا من الجاهلين)، أو من الذاهلين أنه سيؤول إلى القتل.[١]

وقال ابن إسحاق: أي: خطأ لا أريد ذلك.[٢]

ثم نقض التهمة الأخرى مكذبا له، بل وساخرا منه بمثل سخريته، ولكن بالحق وليس بالباطل: ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾، هل تعد تعبيدك لبني إسرائيل بذبح أطفالهم، واستحياء نسائهم نعمة، وأشار إليها باسم الإشارة البعيد احتقارا لها، ونبه على أنها في الحقيقة نقمة، وليست نعمة، فلولا فعلك الظالم مع أبناء بني إسرائيل لما خرجت من بيت والدتي، ولما ألقتني في التابوت في اليم خوفا علي منك، ولما تربيت في بيتك، وخرجت من كنف والدتي، فكل ما تدعي أنه نعمة إنما كان ذلك بسبب ظلمك، فأين فعلي من قتل نفس واحدة مع فعلك بقتل أجيال من بني إسرائيل فأيهم أحق بالإنكار؟، وهل هذا هو ما تمنه علي؟، وهل هذا هو فضلك العظيم؟!

(١) أخرج الطبري قراءة ابن مسعود في تفسيره: (١٩/ ٣٤١)، وينظر: تفسير الرازي: (٢٤/ ١٠٩)، تفسير ابن كثير: (٦/ ١٣٧)،

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره: (١٠/ ٤٠٣).

وهكذا يُجيب موسى عليه السلام بفطنة وذكاء دون أن تثيره تهم فرعون له، فلربما يُثار بعض أصحاب الحق فيخرجون بسبب ذلك عن المعقول.

ثانياً: الجدال حول ألوهية فرعون من خلال سورة الشعراء:

ولنأت على أكثر الحوارات سخونة، وحجاجا بين موسى وفرعون في سورة الشعراء، حيث كان يتعلق بأمر لا يطيق فرعون الحديث عنه، ولا النقاش فيه، وهو إثبات ربوبية الله عز وجل، وألوهيته، وإبطال ادعائها عن فرعون.

قال تعالى واصفا تلك المجادلة: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٢٣ – ٢٨].

حينما علم فرعون أن موسى غير متراجع عن دعوته، انتقل إلى جدل آخر فاستفهم عن رب العالمين، والصحيح أن سؤاله إنما كان على سبيل المكابرة، والعناد، دل على ذلك قول موسى في موضع آخر لفرعون: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾، وقال الله تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ ﴾ [النمل: ١٤].(١)

(١) ينظر هذه المسألة في الفتاوى: (١٦/ ٣٣٤)، وينظر: تفسير شيخ الإسلام ابن تيمية: (٥/ ٤٠ – ٤٤) وهو قول أهل السنة والجماعة، وينظر أصحاب القول الآخر أنه كان =

واستفهام فرعون كان استفهاماً مشوباً بإنكار، وتهكم على طريق الكناية.

قال موسى مجيبا، إجابة واثقة بالله دالة على أن الإله هو المعلوم بالقلوب والفطرة السوية: ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٤].

وهو جواب يساوي ذلك الإنكار، ويغطيه.. إنه رب هذا الكون الذي لا يبلغ إليه ملكك يا فرعون، وقصارى ما ادعاه فرعون أنه إله مصر، وهو ملك حقير بجانب ملكوت السماوات والأرض، وقد كان جواب موسى عليه السلام يحمل احتقار ما يدعيه فرعون مع بطلانه، ولفت نظره إلى هذا الخلْق العظيم، ثم عقب على هذا التوجيه بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، أي: إن كنتم تريدون الحق الذي تصلون به إلى طريق اليقين، وفيه إشارة بأداة (إن) الدالة على الشك على عدم إرادتهم للوصول للحق، لظهوره وبيانه لمن كان مبتغيا للحق متبعا له.[1]

أعرض فرعون عن جواب موسى، واستثار الملأ من حوله، فاستفهمهم استفهاماً يظهر عجبه من هذا القول، ويحتقر صاحبه أمام قومه، أو لعله يصرفهم عن التأثر به، على طريقة المتكبرين الذين يخافون من تسرب كلمات الحق إلى القلوب: ﴿ قَالَ لِمَنۡ حَوۡلَهُۥٓ أَلَا تَسۡتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٥].

= استفهاما على سبيل معرفة ذاته وكنهه، ولم يكن جحودا: البحر المحيط: (٧/ ١٢)، تفسير الرازي: (٢٤/ ١١١)، التحرير والتنوير: (١٩/ ١١٥).

(١) في ظلال القرآن: (٥/ ٢٥٩٢)، زهرة التفاسير، أبو زهرة: (١٠/ ٥٣٢٩)، شخصية فرعون في القرآن، قاسم توفيق: (٣٠٤).

قال ذلك خوفا من أن يعلق من هذه الشبهة شيئاً في قلوب قومه، وقد بالغ فرعون إلى عدم الاعتراف بالجواب المذكور حيث أوهم أن مجرد استماعهم له كاف في رده، وخطأه بقوله: ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾: أي: إلى هذا القول العجيب الغريب، الذي لا عهد لنا به، ولا قاله أحد نعرفه.(١)

عندها لم يجد موسى مناصاً من التصريح بما كان متضمناً له جوابيه السابقين، وحطاً لفرعون من ادعاء الربوبية إلى مرتبة العبد المربوب: ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٦].

فنبههم موسى بهذا التصريح إلى أمور:

أولاً: أن الله ربكم الذي خلقكم وأنشأكم، وخلق آباءكم الأولين ورباهم وكونهم، فهل فرعون خلق وقدر، وهو المخلوق الذي لا يخلق، ولا يقدر.

ثانياً: أن الله رب آبائكم الأولين قبل أن يوجد فرعون.

ثالثاً: أن الرب يجب أن يكون دائماً باقياً، ولا يكون فانياً، كفرعون.

فنزل بهم موسى إلى الاستدلال بأنفسهم، وبآبائهم إذ أوجدهم الله بعد العدم، ثم أعدم آباءهم بعد وجودهم لأن أحوال أنفسهم وآبائهم أقرب إليهم وأيسر استدلالا على خالقهم، فالاستدلال الأول يمتاز بالعموم، والاستدلال الثاني يمتاز بالمعرفة الفطرية لكل منصف.

وقد كان كلام موسى عليه السلام متضمناً حجة قوية لإبطال ألوهية

(١) تفسير الرازي: (٢٤/ ١١٣)، التحرير والتنوير: (١٩/ ١١٧)، في ظلال القرآن: (٥/ ٢٥٩٢)، روح المعاني: (١٩/ ٧٢).

فرعون، وأنه بشر كسائر البشر، لا يملك خلقا ولا إنشاء.[١]

غضب فرعون لما ذكر موسى ما يشمل آباءه المقدسين بوصف يخرجهم من صفة الإلهية، زاعما أن هذا يخالف العقل، فلا يقوله إلا مجنون فاقد لعقله، واشتد خوف فتنة قومه فقال مصرحا بما ينفر قلوبهم عن قائله، وقبول ما يجيء به: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ﴾ [الشعراء: ٢٧]. وقد أكد كلامه بحرفي التأكيد: (إن)، ولام التأكيد، لأن حالة موسى لا تشعر بجنونه فكان وصفه بالمجنون معرَّضا للشك، فلذلك أكد فرعون أنه مجنون يعني: أنه علم من حال موسى ما لم يعلمه قومه.

وقصد بإطلاق وصف الرسول على موسى السخرية به بدلالة رميه بالجنون الواضح عنده، وأضاف الرسول إلى المخاطبين تعالياً، وكبراً عن أن يكون مرسلاً إليه، وأكد التهكم والسخرية بالوصف، وفي ذلك إثارة لغضبهم، وإنكارهم لرسالته بعد سماع الخبر ترفعاً بأنفسهم عن أن يرسل إليهم مجنون، ولزيادة تهييج السامعين كيلا يتأثروا، أو يتأثر بعضهم بصدق موسى، وفي ذلك كله تحريض على استنكار رسالته كأنه يقول: اختير لكم رسول مجنون، وهذه أول رمية رمى فرعون بها موسى بالجنون.[٢]

"ولكن هذا التهكم وهذا القذف لا يفت في عضد موسى، فيمضي في طريقه يصدع بكلمة الحق التي تزلزل الطغاة والمتجبرين: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ

(١) تفسير ابن كثير: (٦/ ١٣٩)، التحرير والتنوير: (١٩/ ١١٩)، روح المعاني: (١٩/ ٧٢).
(٢) التحرير والتنوير: (١٩/ ١٢١)، روح المعاني: (١٩/ ٧٢)، في ظلال القرآن: (٥/ ٢٥٩٢)، تفسير السعدي: (٥٩٠)، تفسير أبي السعود: (٦/ ٢٤٠).

وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[الشعراء: ٢٨]. والمشرق والمغرب مشهدان معروضان للأنظار كل يوم؛ ولكن القلوب لا تنتبه إليهما لكثرة تكرارهما، وشدة ألفتهما، واللفظ يدل على الشروق والغروب، كما يدل على مكاني الشروق والغروب، وهذان الحدثان العظيمان لا يجرؤ فرعون، ولا غيره من المتجبرين أن يدعي تصريفهما، فمن يصرفهما إذن، ومن ينشئهما بهذا الاطراد الذي لا يتخلف مرة، ولا يبطئ عن أجله المرسوم؟ إن هذا التوجيه يهز القلوب البليدة هزا، ويوقظ العقول الغافية إيقاظاً".[1]

فعدل موسى إلى طريق ثالث أوضح من الثاني، وذلك لأن الأمر ظاهر في أن هذا التدبير المستمر للكون على هذا الوجه العجيب لا يتم إلا بتدبير مدبر.

وهذه الطريقة التي اتبعها موسى هي بعينها طريقة إبراهيم عليه السلام مع الملك الذي ادعى الألوهية، فإنه استدل:

أولاً: بالإحياء والإماتة، وهو الذي ذكره موسى عليه السلام ههنا بقوله: ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾، فأجابه نمروذ بقوله: ﴿ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾[البقرة: ٢٥٨]، فدحض حجته إبراهيم بقوله: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾[البقرة: ٢٥٨].

فقول موسى عليه السلام لطاغوت مصر عن رب العالمين: ﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ إبطال واضح لألوهية فرعون المدعاة، لأن ملكك لا يتجاوز مصر، وأما ملك رب العالمين فلا حد له ولا حصر.

(١) في ظلال القرآن: (٥/ ٢٥٩٣).

وبعد إلقاء هذه الحجة التفت موسى إلى من حوله الذين ينادون بألوهيته، فقال محرضا لهم على التفكير بعقولهم: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: إن كنتم ذوي عقل تعقلون.

وفي ندائه لهم بالعقل، واستخدامه لحرف (إن): إشعار بوضوح الأمر بحيث لا يشتبه على من له عقل في الجملة، وأنّهم المتصفون بما رموه عليه الصلاة والسلام به من الجنون.

وهذه صورة من صور الشدة التي جاءت لسبب عارض حيث جعل موسى قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ مقابل قول فرعون: إن رسولكم لمجنون، لأن الجنون يقابله العقل فكان موسى يقول لهم قولا لينا ابتداءً، فلما رأى منهم المكابرة، ووصفوه بالجنون اشتد معهم في القول، وعارض قول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِيَ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] بقوله: إن كنتم تعقلون أي إن كنتم أنتم العقلاء، أي فلا تكونوا أنتم المجانين.(١)

وهي شدة اقتضتها الحكمة الدعوية حيث رماه فرعون بالجنون تشكيكا في نبوته، فرد عليه موسى ابتداءً بدليل ظاهر يتفق عليه العقلاء في ألوهية الله -جل وعلا-، ثم أشار لهم بضعف عقولهم وبعدها عن الصواب، وأنهم أحق بالوصف الذي قذفه فرعون به.

قال الزمخشري: "فإن قلت: ذكر السموات والأرض وما بينهما قد استوعب به الخلائق كلها، فما معنى ذكرهم، وذكر آبائهم بعد ذلك، وذكر

(١) تفسير الرازي: (٢٤/ ١١٢)، البحر المحيط: (٧/ ١٣)، التحرير والتنوير: (١٩/ ١٢١)، روح المعاني: (١٩/ ٧٣)، في ظلال القرآن: (٥/ ٢٥٩٣).

المشرق والمغرب؟.

قلت: قد عمم أوّلاً، ثم خصص من العام للبيان أنفسهم وآباءهم؛ لأن أقرب المنظور فيه من العاقل نفسه، ومن ولد منه ...، ثم خصص المشرق والمغرب، لأن طلوع الشمس من أحد الخافقين، وغروبها في الآخر على تقدير مستقيم في فصول السنة، وحساب مستو من أظهر ما استدل به... فإن قلت: كيف قال أوّلاً: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، وآخراً: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾؟

قلت: لاين أوّلاً، فلما رأى منهم شدّة الشكيمة في العناد، وقلة الإصغاء إلى عرض الحجج خاشن وعارض : (إنّ رسولكم لمجنون)، بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾". (١)

ولما لم يجد فرعون لأدلة موسى دليلا يقابلها، ورأى شدة موسى في الحق عدل عن البرهان إلى التخويف، وهذه طريقة من قهرته الحجة، وفيه كبرياء أن يتحول من الجدل إلى التهديد، فلما ظهر له شدة عزم موسى، وأنه ممن لا يجارى في الحوار قال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩].

واللام هي الممهدة للقسم، وقد أكد تهديده بقول يشبه القسم، و(اتخذت) أي: جعلت لك إلها غيري، وكأن الألوهية أمر يجعل، وليس حقيقة ثابتة يستدل لها العبد بدلالة العقل السليم، ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ

(١) الكشاف: (٣/ ٣١٤)، وينظر: تفسير الرازي: (٢٤/ ١١٣)، تفسير النسفي: (٣/ ١٨٣)، تفسير النيسابوري: (٦/ ٧٧).

﴿ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ أي: لأسجننك، واتبع طريقة الإطناب لأنه أنسب بالتهديد لأنه يفيد معنى: لأجعلنك واحدا ممن عرفت أنهم في سجني.

ومقصود فرعون تذكير موسى بهول السجن الذي يعرف موسى مصير أصحابه، وما يلاقون، وهو ما تبينه (أل) العهدية، فكأنه قال: لأجعلنك ممن عرفت أحوالهم في سجوني.

وهو تهديد ووعيد شديد لموسى عليه السلام، وقد ذكر المفسرون عددا من أنواع التعذيب الذي كان يمارسه فرعون مع المساجين.(١)

ومع هذا التهديد والوعيد فإن موسى لم يفقد ثقته بالله، ولم يلتفت إلى ما يصرفه عن المهمة التي أرسل بها، وهي إقناع قومه بالحجة والبرهان؛ فإذا هو يتجه إلى إظهار آية محسوسة من المعجزات تدل على صدقه، وهي الحجة التي أراد فرعون أن يخفيها عن قومه. فأراد موسى أن يظهرها: ﴿ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴾ أي: حتى لو جئتك بدليل واضح على صدق رسالتي فإنك تجعلني من المسجونين؟ وهذا التقدير دلت عليه (لو) الوصلية التي هي لفرض حالة خاصة، والتعبير عنها بـ(شيء) للتهويل والتعظيم.

وفي هذا إحراج لفرعون أمام الملأ الذين استمعوا لما سبق من قول موسى؛ ولو رفض الاستماع إلى دليله لدل على خوفه منه، وهو يدعي أنه مجنون.

ثم إن موسى استفهمه استفهاما مشوباً بإنكار، واستغراب قطعا

(١) التحرير والتنوير: (١٩/ ١٢٢)، روح المعاني: (١٩/ ٧٤)، في ظلال القرآن: (٥/ ٢٥٩٣).

لمعذرته قبل السجن، ومن ثم وجد فرعون نفسه مقوداً لطلب الدليل: ﴿ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء: ٣١].

ويلحظ أن فرعون أعرض عن التصريح بالاعتراف بموسى عند الإتيان بالآيات، فجاء بكلام محتمل إذ قال: ﴿ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ أي: في دعواك، فهو ما يزال يشكك في صدق موسى عليه السلام، ففي حرف (إن): ما يقتضي أن فرض صدق موسى عند فرعون مشكوك فيه كما هو الغالب في شرط (إن)، وأن الغالب كذبه، وهو ما يريد فرعون إيهام قومه به، فبقي تحقيق أن ما سيجيء به موسى مبين أو غير مبين. وهذا قد استبقاه كلام فرعون إلى ما بعد الوقوع، والنزول ليتأتى إنكاره إن احتاج إليه.(١)

هنا كشف موسى عن معجزته؛ وقد أخرهما حتى بلغ التحدي من فرعون أقصاه: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٣٢ - ٣٣].

ولما أسقط في يد فرعون، ورأى تلك الآية البينة، عاد إلى الفرار مرة أخرى بالاتهام والتخويف، وحاول دفعها؛ وهو يشعر بضعف موقفه، ويهيج مخاوف قومه من موسى وقومه، ليغطي على هذه المعجزة: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الشعراء: ٣٤ - ٣٥].

(١) التحرير والتنوير: (١٩/ ١٢٢).

"ويبدو تضعضع فرعون، وتهاويه، وتواضعه للقوم الذين يجعل نفسه لهم إلها، فيطلب أمرهم ومشورتهم: ﴿ فَمَاذَاتَأْمُرُونَ ﴾، ومتى كان فرعون يطلب أمر أتباعه وهم له يسجدون!

وتلك شنشنة[1] الطغاة حينما يحسون أن الأرض تتزلزل تحت أقدامهم، عندئذ يلينون في القول بعد التجبر، ويلجأون إلى الشعوب، وقد كانوا يدوسونها بالأقدام، ويتظاهرون بالشورى في الأمر، وهم كانوا يستبدون بالهوى. ذلك إلى أن يتجاوزوا منطقة الخطر، ثم إذا هم هم جبابرة مستبدون ظالمون!".[2]

وقد اتهم فرعون موسى عليه السلام في حاله بتهمتين:

أولاً: أنه بهذه الدعوة لا يريد هداية، ولا تعليما، ولكنه ساحر يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره؛ فاتهمه بالسحر تنفيرا منه.

ثانياً: أنه يريد إخراجكم من الأرض لئلا يكون لكم سلطان في الأرض، بل يكون الأمر لغيركم، وتكونون عبيدا تعيشون على هامش الحياة فيها.

ويلحظ أنه أراد من خلال ذلك استثارة عنصريتهم بما كان بينهم وبين بني إسرائيل من العداوة، وذلك باتهام موسى بحب الملك والمنصب والمنزلة، وذلك ليستتب له ملكه، وربوبيته، وهو ماصرح به هو وقومه في سورة يونس: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَلۡفِتَنَا عَمَّا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا

(١) الشنشنة: الطبيعة والسجية. لسان العرب: (١٣/ ٢٤١).

(٢) في ظلال القرآن: (٥/ ٢٥٩٣).

ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾[يونس: ٧٨].[1]

وأشار عليه الملأ؛ وقد خدعتهم حيلته، وهم شركاء فرعون في باطله، وأصحاب المصلحة في بقاء الأوضاع التي تجعلهم حاشية ذات نفوذ ومكانة: ﴿ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الشعراء: ٣٦ - ٣٧].

إنّنا ومن خلال هذا الحوار الذي أداره موسى عليه السلام، وكيفية ردّه على الشبهات، والأسئلة التي أثارها فرعون نتبين مدى ما كان يتمتع به موسى من قدرة على الحوار والمناقشة، والإقناع بالحجة والدليل، والمنطق الواضح السليم.

ويبدو لنا بوضوح أيضاً مدى التدرج الذي سار به موسى في إدارته للحوار، لإقامة الحجة على فرعون، ودحض حجته، وبيان ضعف موقفه أمام أشراف قومه، فتخبط فرعون من الاتهام، إلى التهديد والوعيد، وأرعد وأزبد، وكان موقف موسى ثابتاً رغم طغيان فرعون، ومحاولته لزعزعة موسى عن موقفه، وإشغاله عن الدعوة بالاتهام بالجنون والسحر، فلم ينصرف موسى عن الهدف الذي أراده من دعوة قومه، وبيان بطلان ألوهية فرعون المدعاة، وهي أعظم ما يمكن زعزعته في نفوس قومه.

ثالثاً: الحوار بين موسى وفرعون في الألوهية من خلال سورة طه:

وقريب من الحوار والجدال السابق بين موسى عليه السلام، وفرعون

(١) زهرة التفاسير: (١٠/ ٥٣٥١)، روح المعاني: (١٩/ ٧٤)، في ظلال القرآن: (٥/ ٢٥٩٤).

ما ذكره الله -جل وعلا- في سورة طه، ولعلي أقف باختصار مع هذه الآيات تجنباً للتكرار في الحوار السابق، وهي تحكي جانبا آخر من الحوار الذي دار بين موسى وفرعون: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلۡقُرُونِ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدًا وَسَلَكَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ [طه: ٤٩ – ٥٣].

فبعد أن أعلم موسى فرعون أنه مرسل من ربه إلى فرعون في قوله: ﴿ فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدۡ أُوحِىَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ [طه: ٤٧ – ٤٨]

أجابه فرعون: ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه:٤٩]، وإضافته الرب إلى ضميرهما لأنهما قالا له: ﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾، وأعرض عن أن يقول: فمن ربي؟ إلى قوله: ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا ﴾ إعراضا عن الاعتراف بالمربوبية، ولو بحكاية قولهما، لئلا يقع ذلك عند أتباعه موقعاً فيحسبوا أنه متردد في معرفة ربه، أو أنه اعترف بأن له ربا.[1]

يقول عبد الكريم الخطيب معلقاً على هذا الموقف: " ويدهش فرعون لهذه المفاجأة، التي طلع بها عليه هذان الرسولان، وتضل من وعيه الكلمات

(١) الكشاف: (٣/ ٦٨)، تفسير الرازي: (٢٢/ ٥٨)، البحر المحيط: (٦/ ٢٣٢)، تفسير أبي السعود: (٦/ ١٩)، التحرير والتنوير: (١٦/ ٢٣٢)، روح المعاني: (١٦/ ٢٠٢).

التي سمعها، ولا يمسك منها إلا بالكلمة الأولى منها .. ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾.

ويقلّب هذه الكلمة (ربّك) ويوردها على ذاته الإلهية، فيرى أن الرسولين ينسبانه إلى ربّ ..، وهذا هو النكر أعظم النكر؟ أربّ يضاف إلى ربّ؟ إنه إن تكن ثمة إضافة فهو الربّ الأعلى الذي تضاف إليه الأرباب .. وإنه إذا جاز أن يكون للناس رب؛ فلن يكون له هو رب..، ولهذا اتجه إلى موسى مخاطبا في تهكم واستنكار ..﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩] إنه لا ينتسب إلى رب، فإذا كان لموسى وهارون رب غير فرعون فليقولا له من هو؟ ولهذا لم يقل فرعون : من ربى هذا؟ بل قال من ربكما أنتما؟".[١]

قال موسى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

وفى هذا الجواب، تحدّ ظاهر لفرعون، وأن ادعائه الربوبية لا يعدو أن يكون دعوى كاذبة، وهو جواب في غاية البلاغة لاختصاره، ودلالته على أنّ الغني القادر المنعم على الإطلاق هو الله تعالى، وأنّ جميع ما عداه محتاج إليه جل وعلا.[٢]

ولذلك قال الزمخشري: "ولله درّ هذا الجواب ما أخصره وما أجمعه، وما أبينه لمن ألقى الذهن، ونظر بعين الإنصاف، وكان طالباً للحق".[٣]

وكان الظاهر أن يقول عليه السلام: ربنا رب العالمين لكن موسى اتبع

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب: (٨/ ٨٠٣).

(٢) تفسير البيضاوي: (٤/ ٥٤)، البحر المحيط: (٦/ ٢٣٢)، التحرير والتنوير: (١٦/ ٢٣٣).

(٣) الكشاف: (٣/ ٦٨)، وينظر: روح المعاني: (١٦/ ٢٠٢).

طريق ما يسمى بالأسلوب الحكيم.[١]

لما شاهد فرعون هذا الجواب المبهر أراد أن يصرفه عليه السلام عن دعوته، ويشغله عما هو بصدده، فقال: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١] فلما لم يقدر فرعون على مجادلته انتقل إلى سؤال آخر، وهو ما حال من هلك من القرون؟، وذلك كله على سبيل المراوغة والحيدة عن الاعتراف بما قال موسى، وما أجابه به.

قيل: سأله عن أخبارها وأحاديثها ليختبرهما أهما نبيان؟ أو هما من جملة القصاص الذين قرأوا قصص الأمم السابقة؟ وقيل: مراده ما لها لا تبعث، ولا تحاسب.[٢]

فأجاب موسى بكل ذكاء لغرض فرعون من هذا السؤال: "بأنّ كل كائن محيط به علم الله، وهو مثبت عنده في كتاب، ولا يجوز عليه الخطأ والنسيان، كما يجوزان عليك أيها العبد الذليل والبشر الضئيل، أي: لا يضل كما تضل أنت، ولا ينسى كما تنسى يا مدعي الربوبية بالجهل والوقاحة".[٣]

فهو تعريض بفرعون بأنه فاقد لصفات الربوبية فيعرض له النسيان

(١) روح المعاني: (١٦/ ٢٠٢)، والمراد بالأسلوب الحكيم: "تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيها على أنه الأولى بالقصد، أو السائل بغير ما يتطلب بتنزيل سؤاله منزلة غيره تنبيها على أنه الأولى بحاله أو المهم له". الإيضاح للقزويني: (٧٦)، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، د.أحمد مطلوب: (١/ ٢٠٠).

(٢) تفسير أبي السعود: (٦/ ٢٠)، تفسير الرازي: (٢٢/ ٥٩)، البحر المحيط: (٦/ ٢٣٢)، التسهيل، لابن جزي: (٢/ ١٧٣)، روح المعاني: (١٦/ ٢٠٣)، التحرير والتنوير: (١٦/ ٢٣٣)، تفسير السعدي: (٥٠٦).

(٣) الكشاف: (٣/ ٦٩)، وينظر: البحر المحيط: (٦/ ٢٣٢)، تفسير الرازي: (٢٢/ ٦١).

وسبق الجهل، وهو دليل وبرهان جلي آخر عرّض فيه موسى ببطلان ادعاء فرعون في الربوبية، وأنه لا يليق بالرب أن يكون جاهلا أو ناسيا.

والحاصل أن موسى تجنب التصدي للمجادلة والمناقضة في غير ما جاء لأجله لأنه لم يبعث بذلك، وفي هذا الإعراض فوائد كثيرة.

ثم استطرد موسى عليه السلام في وصف الله عز وجل بصفات لا يمكن لفرعون أن يتصف بها، ولو قال له هو القادر أو الرازق، وشبهه لأمكن فرعون أن يغالطه، ويدعي ذلك لنفسه لأن صفات خلق الأرض، وبسطها، وإنزال المطر تدل على الكمال المطلق، قال موسى مستطرداً في وصف بعض أفعال الله -جل وعلا-: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٣].

وقد كانت حجة ملجمة من موسى لفرعون فكل هذه الأفعال لا يمكن أن يفعلها إلا رب متصرف في الكون، لا شريك له في التصرف والإرادة.

وقد وجم فرعون لهذا الجواب، وظهر منه الاضطراب، فنقل الحديث إلى وجه آخر فرارا مرة أخرى من الحوار إلى الاتهام، وخشي أن تروج فكرة بطلان ألوهيته إلى قومه فجاء قومه من ناحية ما يحرصون عليه، وهو حرصهم على سلامة أرضهم، وأموالهم، فقال: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾﴾ [طه: ٥٧].

وأضاف السحر إلى ضمير موسى في قوله: ﴿بِسِحْرِكَ﴾ تحقيراً لشأن هذا الذي سماه سحرا، واستصغارا لموسى.

ويأتي مكر الجبارين فيأتي فرعون بشبهتين ليثير حنق القوم، وعداوتهم لموسى:

أولهما: اتهامه برغبته بإخراج القوم من أرضهم: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾، وهو أمر يشق على النفس قد قرنه الله في بعض الآيات بقتل النفس، فلما امتلأت نفوسهم بالحقد والحنق عليه ألقى التهمة الثانية التي تقدح في رسالته، وتنفر الناس منه، وهي اتهامه بالسحر.

وهنا غضب القوم، ليس لربوبية فرعون، ولكن دفاعاً عن اقتصادهم وأرضهم، وقد ظهر أثر هذا الكلام على الملأ بترديدهم لهذا القول بعد زمن، فقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ [طه: ٦٣].

وهكذا يروج الطغاة لتشويه صورة المصلحين بين الناس حتى تصبح حقيقة يتناقلها الناس، ويرددوها بلا تمييز، ولا وعي.(١)

وبكل مكر كبار انتقلت المعركة "فلن تكون بين فرعون وموسى..، ولكنها ستكون بين موسى، وسحرة فرعون! ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ﴾ [طه: ٥٨] فهذا هو مكان موسى في نظر فرعون! ولهذا بادر فرعون بإعلان البدء بالمعركة.. ﴿فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنتَ﴾ [طه: ٥٨].. وأدخل فرعون نفسه في المعركة باعتباره شاهدا متفرجا، يرفّه عن نفسه، بما يرى من ألاعيب السحر وفنونه! ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ [طه: ٥٨] أي:

(١) تفسير الرازي: (٢٢/ ٦٢)، فتح القدير: (٣/ ٥٢٩)، تفسير الشعراوي: (١٥/ ٣٠٧)، التحرير والتنوير: (١٦/ ٢٤٤).

واختر مكانا مبسوطا مستويا، يسع الجموع الحاشدة التي ستشهد هذا السّحر، وفنونه، وحيله!!".[1]

وهكذا لم يمض فرعون في الجدل، لأن حجة موسى عليه السلام فيه واضحة، وهو يستلهم حجته من آيات الله الكونية، وتأييده ومعيته له.

وأعلن فرعون التحدي أمام الملأ ليظهر قوته وثباته، وإنما أعاد فرعون أمر الوعد إلى موسى عليه الصلاة والسلام تحرزا من نسبته إلى ضعف القلب، وضيق المجال، وإظهار الجلد، وإظهار أنه متمكن من الأمر، وأنه لم يخرج عن طوعته وقدرته، كما أن تقديم ضميره على ضمير موسى عليه الصلاة والسلام، وتوسيط كلمة النفي بينهما إشعاراً بمسارعته إلى الاستجابة للموعد.[2]

ولم تفت موسى عليه السلام هذه الفرصة فواعدهم في يوم العيد الذي يجتمع فيه الناس، ومن فطنته أنه حدد الموعد بكل دقة دلالة على وفائه بالوعد، وثقته بنصر الله، فاختار يوم الزينة، ووقت الضحى بالتحديد ليكون الجمع أكثر، ويحق الله الحق ويبطل الباطل.

ولقد كانت كل تلك الترتيبات من تقدير الله -جل وعلا- وبالا على فرعون، حيث كشفت الحقيقة في صدق موسى عليه السلام، وبطلان ألوهية فرعون، وكان أمر الله قدرا مقدورا. كان هذان نموذجان لحوارين بين موسى وفرعون ظهر فيهما تدرج موسى في الخطاب والحوار أقام فيهما الحجة على القوم، وعلى فرعون، وتبين فيهما لكل منصف بطلان دعوى

(١) التفسير القرآني للقرآن: (٨/ ٨٠٣).

(٢) تفسير أبي السعود: (٦/ ٢٤)، وينظر: تفسير السعدي: (٥٠٨).

فرعون بالربوبية، صال فيها موسى وجال، وأدى المهمة بالتبليغ لدين الله بالموعظة والحكمة تارة، وبالخطاب العقلي تارة، وكان يلقي فيها الحجج والبراهين على فرعون وملئه، ولا يعدو فرعون في كل مرة تضعف فيها حجته بالفرار من المواجهة بإلقاء التهم على موسى، بالسحر تارة، وبالجنون تارة، وبالتخويف والترهيب بالسجن تارة، والقتل أخرى، وتشويه الصورة بحب المكانة والدنيا والمنصب، وتأليب قومه بأنه لا يريد إلا إخراجكم من الأرض، وتوريث بني إسرائيل هذه الأرض، وهي تهم تدل على ضعف فرعون عن المحاجة من جهة، وهي في نفس الوقت لم تضعف من عزم موسى عليه السلام في الدعوة إلى الدين الصحيح، واجتثاث ربوبية فرعون من قلوبهم.

ولا ريب أن موسى قد حقق انتصارا عظيماً من خلال هذا الحوار، وأظهر حجته على فرعون، ولم يجد من فرعون تلك البراهين الدالة على صدقه.

المبحث السادس:
خطاب موسى مع فرعون بالشدة والتهديد والدعاء عليه بالهلاك.

من خلال عرض الحوارات السابقة بدا لنا بوضوح أن موسى عليه السلام قد بذل مع فرعون شتى الطرق في الإقناع، والبيان تارة باللين، والملاطفة: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ [النازعات: ١٨]، وتارة بالحجة والبرهان، والدليل الواضح: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٥٠]، وتارة بالدليل العقلي: ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٦]، وفي بعض الأحيان تعرض الشدة لأمر عارض رداً على شبهة، أو بيانا لفساد العقل: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء: ٢٨] ردا على قول فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٧].

كانت هذه مراحل اقتضتها حكمة الدعوة، وحال فرعون من جهة المنزلة التي كان يتبوأها، واستجابة لأمر الله -جل وعلا- باللين والدعوة بالحسنى.

ولكن التدرج الذي سلكه موسى عليه السلام في الجملة لم يخرج عن اللين في باديء أمره كما أمره الله - جل وعلا -، ثم انتقل إلى الجدال والحوار، مع الدليل العقلي والبرهان الفطري، ثم انتقل أخيراً إلى الشدة والتهديد والوعيد.

فلما أقيمت الحجج والآيات الواضحات البينات على فرعون، وتبين

عناده وكبرياؤه عن اتباع الحق، واتهم موسى كذبا وزورا بالسحر مع ظهور حججه وبراهينه، تغيرت نبرة موسى إلى الشدة والغلظة.

أولاً: اتهام موسى عليه السلام فرعون بالخسارة الدنيوية والأخروية:

حكى الله -جل وعلا- جانبا من مواقف الشدة، والغلظة، والتهديد، والوعيد في عدد من الآيات. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾[الإسراء: ١٠١ - ١٠٢].

والمراد بقوله: (مثبورا): قال ابن عباس: ملعوناً محبوساً عن الخير، وعن ابن عباس أيضاً: قليل العقل، وقال الضحاك: مغلوباً، وقال مجاهد وقتادة: هالكاً. (١)

ولا شك أن موسى عليه السلام لم يصل إلى هذه الجرأة مع الطاغية فرعون إلا بعد أن استنفد جميع المحاولات في الإقناع، وهو ما يشير إليه قول موسى له: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾، وأكد موسى كلامه بلام القسم، وحرف التحقيق تحقيقا لحصول علم فرعون بذلك، والمراد بـ(بصائر) أي: حججاً وبراهين بينة على بطلان دعواك.

وإنما أيقن موسى عليه السلام بأن فرعون قد علم بصحة هذه الآيات: إما بوحي من الله أعلمه به، وإما برأي مصيب، أي: إنك لتعلم هذا، ولكن العناد والكبر، يأخذان عليك الإقرار بالحق، واتباعه.

(١) الدر المنثور، السيوطي: (٩/ ٤٥٦)، تفسير ابن كثير: (٥/ ١٢٦).

وأيضا فإن موسى لم يصرح بهذه الغلظة إلا بعد أن أوحى الله له فيما يبدو بقرب هلاك فرعون، وبعد أن رسخت قدمه قوة وثباتا، وكون عددا من الأتباع الذين زادوه تثبيتاً، وثقة بنصر الله.

وإلى ذلك أشار الشعراوي، فقال: (ثم لم يَفُتْ موسى عليه السلام، وقد ثبتتْ قدمه، وأرسى قواعد دعوته أمام الجميع أنْ يُكلِّم فرعونَ من منطلق القوة، وأن يُجابهه واحدة بواحدة، فيقول: ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠٢] فقد سبق أنْ قال فرعون: ﴿ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ ﴾ [الإسراء: ١٠١] فواحدة بواحدة، والبادي أظلم...، وكأن الله تعالى أطْلعَ موسى على مصير فرعون، وأنه هالكٌ عن قريب).[1]

وقد أكد هذا الظن بهلاك فرعون بـ(إن) المؤكدة، و(اللام)، وبالقسم، ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾، ويلاحظ أنه ناداه باسمه الصريح لأنه إذا كان فرعون قد استعلى بجبروته، فموسى قد أعلاه الله تعالى بمقام الرسالة، فحق له أن يخاطبه باسمه الصريح.

وقد استشكل أبو حيان الجمع بين هذه الآية وبين الأمر بلين القول، وحاول الإجابة عليه، فقال: (كان أولاً موسى عليه السلام يتوقع من فرعون أذى كما قال: ﴿ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ [طه: ٤٥] فأمر أن يقول له قولاً ليناً، فلما قال له الله: لا تخف وثق بحماية الله، فصال على فرعون صولة المحمي، وقابله من الكلام بما لم يكن ليقابله به قبل ذلك).[2]

(١) تفسير الشعراوي: (١٤/ ٨٧٨٠).

(٢)البحر المحيط: (٦/ ٨٤).

والأظهر لي - كما سبق - أن موسى لما تبين له أن فرعون معاند مكابر، ويئس من رجوعه بإخبار الله له، أو بغالب ظنه -كما في الآية- أنه قابله عندها بالشدة والغلظة، وأن ذلك كان رداً على قول فرعون وغلظته معه، وأنه الأنسب بالمقام بعد تعداد الآيات، والظاهر أن ذلك بعد لقائه بالسحرة وإيمانهم به، فكانت من أبين الحجج على صدق موسى عليه السلام.

"وهكذا نفهم لين القول لا كما يفهمه بعض المهزومين أمام ضغط الجاهلية والعلمانية والطاغوت...فلا يجب أن نفهم من لين القول في بداية الدعوة والمواجهة أنّه لن تكون هناك مخاشنة إذا اقتضت الأمور، بل إنّ من الضعف أن نواجه صلف الطاغوت بلين نُخفي وراءه ضعف القدرة عن قول كلمة الحق!".[1]

ثانياً: اتهامه بالتكبر، والإعراض عن يوم الحساب:

ومن المواقف الغليظة أيضاً في جانب فرعون ما ذكره الله -جل وعلا- عن موسى في نقاشه مع فرعون، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ [غافر: ٢٦ - ٢٧].

وعلى كلا القولين هل كان ذلك خطاباً مباشراً من موسى لفرعون، أم كان خطابا لقومه[2]؛ فإن موسى لما توعده فرعون بالقتل كان غليظا في رده

(١) شخصية فرعون في القرآن، قاسم توفيق: (٣٠٠).

(٢) ذهب الطبري وابن عطية والقرطبي إلى أن الخطاب كان مباشرا، وذهب ابن كثير، وابن عاشور، والآلوسي إلى إن خطاب فرعون وموسى كان لقومهما ولم يكن مباشراً بينهما، =

عليه، وبين ما به من الصفات المنحرفة من التكبر، والقسوة، والإعراض عن يوم القيامة.

قال لقومه مجيباً: ﴿ إِنِّي عُذْتُ ﴾ أي: بالله الذي هو ربي وربكم، ﴿ مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ ﴾ فذكره بوصفه لتشمل استعاذته فرعون وغيره من الجبابرة، وللإشارة إلى علة الاستعاذة، وهي التكبر، وليكون على طريقة التعريض ؛ فيكون أبلغ.

وأراد بالتكبر: الاستكبار عن الإذعان للحق، وهو أقبح استكبار، وأدله على دناءة صاحبه ومهانة نفسه، وعلى شدة ظلمه، وقال: ﴿ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ عقّبه به لأن طبع المتكبر القاسي إبطال الحق، واحتقار الخلق، لكنه قد يتوب إذا كان مقراً خائفاً من الحساب، وأما إذا اجتمع التكبر، والتكذيب بالبعث كان أشد ظلما، فلا كبيرة إلا ارتكبها، فيكون بالاستعاذة أولى وأحق.

وافتتح الكلام بـ(إن) تأكيدا، وتنبيها على أن السبب في دفع الشر هو العياذ بالله تعالى، وخص اسم الرب لأن المطلوب هو الحفظ والتربية، وأضافه إليهم حثا لهم على موافقته في العياذ به سبحانه.[1]

وما ذكره الله -جل وعلا- عن قيل موسى هو صورة من صور الشدة

= وإنما سمعه موسى نقلا عن فرعون. ينظر: تفسير الطبري: (٢١/ ٣٧٥)، المحرر الوجيز: (٤/ ٦٢٢)، تفسير القرطبي: (١٥/ ٣٠٥)، تفسير ابن كثير: (٧/ ١٣٩)، التحرير والتنوير: (٢٤/ ١٢٦)، روح المعاني: (٢٤/ ٦٣).

(١) الكشاف: (٤/ ١٦٦)، تفسير أبي السعود: (٧/ ٢٧٣)، روح المعاني: (٢٤/ ٦٣)، روح البيان: (٨/ ١٣٢).

التي اقتضتها الحكمة الدعوية، فلما توعده فرعون بالقتل، واتهمه بما هو بريء منه بإظهار الفساد في الأرض، وهي تهمة لا يستحقها إلا فرعون - الذي قتل الأبناء واستحيى النساء حفاظا على ملكه-، أجابه موسى ببيان صفاته الحقيقية لقومه، وهي صفتا الكبر، والإعراض عن يوم الحساب، فكان جوابا شافيا من موسى أبان عن عزة اتصف بها موسى عليه السلام.

والذي يبدو أن موسى إنما قال ذلك بعد أن بلغ منزلة في قومه، وبعد أن تغلب على السحرة في نزاله، وأصبحت له مكانة تبوأها بين قومه، وإلا لم يجرؤ على هذه الكلمة العظيمة في حق الطاغية فرعون، وقد تبين لفرعون صدقه ونبوته، وبعد أن تبين له أيضاً عناد فرعون وكبريائه عن اتباع الحق.

قال الزمخشري: "والظاهر أنّ فرعون لعنه الله كان قد استيقن أنه نبيّ، وأن ما جاء به آيات، وما هو بسحر، ولكن الرجل كان فيه خَب وجَربَزة[1]، وكان قتالاً سفاكاً للدماء في أهون شيء، فكيف لا يقتل من أحس منه بأنه هو الذي يَثُلُّ[2] عرشه، ويهدم ملكه، ولكنه كان يخاف إن همّ بقتله أن يعاجل بالهلاك".[3]

ثالثاً: التهديد والتخويف في خطاب موسى لفرعون وقومه:

إن من الأساليب التي لم تفارق خطاب موسى مع فرعون، وقومه أسلوب التهديد والوعيد، وتذكيرهم بعقوبة الله لهم عند الإعراض عن الحق، وذلك ما يظهر عند لقائه بفرعون في بادئ أمره، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا

(١) الخَب: الخداع الخبيث، والجُرْبُز: هو الخَب. لسان العرب: (١/ ٣٤١).
(٢) يَثُلُّ: أي: يهدم ويزيل. لسان العرب: (١١/ ٨٩).
(٣) الكشاف: (٤/ ١٦٥).

﴿ قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ [طه: ٤٨].

وهو تعريض بإنذاره على التكذيب، والتولي قبل حصوله من فرعون ليكون البلاغ على أتم وجه.

إن موسى وهارون عليهما السلام لم يواجها فرعون بهذا القول باعتباره من كلامهما، وإنما هو وحي أوحى الله به إليهما، وهما مجرد ناقلان لهذا الوحي.

وقد أكد سبحانه الوحي، والوعيد بـ(قد)، و(أن)، وكان ذلك الترهيب والتأكيد له أثره في نفس فرعون فقد اتجه مباشرة إلى الاستفهام: ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴾.

وفيه من التلطيف في الوعيد حيث لم يصرحا بحلول العذاب به، وهذا فيه أيضاً ترغيب لفرعون بالإيمان، واتباعهما، وفي نفس الوقت تهديد، غير مباشر كي لا يثيرا كبرياءه، وخاصة في أول أمره: ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [طه: ٤٨].[1]

"وهنا إشارتان: إحداهما: أن موسى عليه السلام كان ربه يكلمه ويوحي إليه، والثانية: أنهما ابتدءا الدعوة بالجزء المخوف منها، وهو العذاب لمن تولى، وأعرض، ونأى بجانبه عن الدعوة، وذلك لأن الجبابرة يرهبهم الأمر المغيب عنهم، ويفزعهم فيحاولون من بعد إرهابهم الاستماع إلى القول، وإن كانت عاقبة الاستماع في الاستجابة غير محققة، فالشر ينازع

(١) تفسير أبي السعود: (٦/ ١٩)، التحرير والتنوير: (١٦/ ١٢٧)، في ظلال القرآن: (٤/ ٢٣٣٧)، التفسير القرآني للقرآن: (٨/ ٧٩٧)، تفسير السعدي: (٥٠٦).

نفوسهم، ويقاوم الخير، فأيهما غلب كانت العاقبة له".[١]

ومن مواقف التذكير، والوعظ، والتهديد بعقوبة الله، ما قاله موسى للسحرة عند لقائه بهم للنزال والمغالبة: ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ ﴾ [طه: ٦١].

ففد ابتدأ موسى عليه السلام لقاء السحرة بإرهابهم بقوة الله تعالى وتهديدهم: (ويلكم)، وذلك لأنهم مستعبدون بقوة فرعون، فذكرهم أن قوة الله أعظم، فقال: ﴿ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾ فأوضح لهم قدرة الله تعالى، وأنها تبيد خضراء الظالمين، ليزيل برهبة الله تعالى رهبة فرعون الذي لا يملك شيئا، وإنما قوته تخيل، وهو في ذاته ضعيف كغيره من الناس.

ويجوز أن يكون الخطاب بقوله: (ويلكم): حقيقة الدعاء، فيكون غير جار على لين القول مع فرعون: إما لأن الخطاب بذلك لم يكن مواجها به فرعون مباشرة، بل واجه به السحرة خاصة، وإما لأنه لما رأى أن لين القول لهم غير مجدٍ، فلم يزل فرعون على تصميمه على الكفر، فأغلظ القول زجرا له بأمر خاص من الله في تلك الساعة تقييدا لمطلق الأمر بإلانة القول، وإما لأنه لما رأى تمويههم على الحاضرين فرأى واجبا عليه تغيير المنكر بلسانه بأقصى ما يستطيع، لأن ذلك التغيير والتهديد هو المناسب للمقام[٢].

وعلى كل الاحتمالات الثلاث في تعليل الشدة فإن الحكمة في ذلك الوقت

(١) زهرة التفاسير: (٩/ ٤٧٣٣).

(٢) التحرير والتنوير: (١٦/ ٢٤٨)، زهرة التفاسير: (٩/ ٤٧٤٥).

تهديدهم ووعيدهم، والخروج من جانب اللين إلى جانب الشدة، وذلك لأن المقام مقام مواجهة ومفاصلة بين الحق والباطل، فقد ائتمروا على القضاء على موسى عليه السلام، وإبادته بهذا الباطل من السحر.

ثم أكد موسى وقوع الهلاك عليهم بقوله: ﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ ﴾ والإسحات: هو الاستئصال، وألا تبقى منهم باقية، ومع هذا الاستئصال: الخيبة، لأن الافتراء أشد الخيبة، ولا يلجأ إليه إلا المهزومون في ذات أنفسهم، وضعيفو الحجة الذين يخشون من عدم ظهور دليلهم وحجتهم.(١)

ولا شك أن بذل النصح والتخويف أسلوب له أثر، و"الكلمة الصادقة تلمس بعض القلوب وتنفذ فيها، ويبدو أن هذا الذي كان؛ فقد تأثر بعض السحرة بالكلمة المخلصة، فتلجلج في الأمر؛ وأخذ المصرون على المباراة يجادلونهم همساً خيفة أن يسمعهم موسى: ﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴾ طه: ٦٢]".(٢)

وهذا ما يشير إليه قوله: ﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم ﴾ أي: حصل بينهم النزاع.

قال بعض المفسرين: لما سمعوا كلام موسى قالوا: ليس هذا بكلام ساحر، فحصل بينهم النزاع، والاختلاف، فقالوا: إن كان ساحرا غلبناه، وإن كان نبياً غلبنا.(٣)

---

(١) زهرة التفاسير: (٩/ ٤٧٤٤).

(٢) في ظلال القرآن: (٤/ ٢٣٤١).

(٣) ورد ذلك عن قتادة وغيره. ينظر: تفسير القرطبي: (١١/ ٢١٥)، تفسير الخازن: =

فأجمعوا أمرهم على قولهم: ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَٰحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ [طه: ٦٣].

وقد حذرهم موسى في هذه الموعظة أمرين:

الأول: عذاب الدنيا والآخرة، واستئصال الله لهم، وإهلاكهم في قوله: ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾، والتنوين، والتنكير في: (عذاب) للتعظيم، والتهويل.

الثاني: الخيبة، والحرمان عن المراد فإن الافتراء زائل لا محالة، فلا يظفر بالنصر، ولا يفوز بالبغية من افترى على الله الكذب، وهو دليل على عظم افتراء الكذب على الله.(١)

رابعاً: الدعاء على فرعون وملئه بالهلاك:

ولما رأى موسى مدى الإعراض الذي اتصف به فرعون، مع عظيم الآيات التي جاء بها اتجه إلى ربه يدعو على فرعون، وملئه، الذين يملكون المال والزينة، الذي تضعف تجاههما قلوب الكثيرين من الأتباع، فتنتهي إلى السقوط أمام الجاه والمال، وإلى الرضا بمنهج الضلال رغبة في المال لا قناعة بهذا المنهج، اتجه موسى إلى ربه يدعوه أن يدمر هذه الأموال، وأن يشدد على قلوب أهلها لتزول فتنتهم بهذا المال عن الناس.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً

= (٤/ ٢٧٣)، تفسير البغوي: (٣/ ٢٦٦).

(١) ينظر: تفسير الرازي: (٢٢/ ٦٤)، تفسير النيسابوري: (٥/ ٣٠٢)، البحر المحيط: (٦/ ٢٣٧).

﴿وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس: ٨٨]

ولما كانت النعمة مغرية بالطغيان لأهل الجهل، وكثرة المال تمكنهم من الناس، وتخضعهم لكفرهم، فقد عد موسى عليه السلام إمداد فرعون بالنعمة مغريا له بالازدياد في الإعراض عن الدين؛ فكان دعاء موسى عليهم استصلاحا لهم، بوسائل التشديد عليهم، وهذا المعنى يدل عليه قراءة: ﴿رَبَّنَا ليَضلواعَن سَبِيلِكَ ﴾[1]، أي: يكون المال سبباً في ضلالهم بأنفسهم.

لقد كان المال بيد فرعون ليس سبباً في ضلاله فقط، بل كان وسيلة أيضاً لإضلال الناس عن سبيل الله، وهو ما يدل عليه القراءة الأخرى: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ﴾، وهذا الإضلال إما أن يكون بالإغراء بالمال وشراء الذمم، وإمّا بالقوة التي يعطيها المال لأصحابه فيجعلهم قادرين على إذلال الآخرين، أو إغوائهم.

ولا ريب أن وجود النعمة في أيدي المفسدين يزعزع كثيرا من القلوب التي لا يبلغ من يقينها بالله أن تدرك أنّ هذه النعمة ابتلاء واختبار، وأنّها كذلك ليست شيئا ذا قيمة إلى جانب فضل الله في الدنيا والآخرة.[2]

---

(١) قرأ عاصم وحمزة الكسائي بضم الياء على المعنى المتعدي في الإضلال، وقرأ الباقون بفتحها على المعنى اللازم في الضلال. ينظر: السبعة، لابن مجاهد: (٢٦٧)، النشر، لابن الجزري: (٢/ ٢٦٢).

(٢) الكشاف: (٢/ ٣٤٧)، البحر المحيط: (٥/ ١٨٥)، في ظلال القرآن: (٣/ ١٨١٦)، شخصية فرعون في القرآن: (٢٢٨)، تفسير المنار: (١١/ ٣٨٦).

ومهد موسى لدعائه تمهيدا بقوله: ﴿ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ﴾ دلالة على أن ما سأله من الله إنما هو لمصلحة الدين لا للانتقام منه نفسه، فسأل الله سلب النعمة عن فرعون وملئه، وحلول العذاب بهم لتذليل تكبرهم، ليرجعوا عن ضلالهم، ويسهل قبولهم الإيمان.(١)

ويظهر في الدعاء مدى التذلل والخضوع الذي أظهره موسى عليه السلام بين يدي ربه، بتكرار لفظ الرب -جل وعلا-، وبيان مدى الإفساد الذي أوقعه فرعون في الأرض بهذه الأموال، فقد أضل كثيرا من الناس، ونشأت أجيال على عبودية فرعون، والذل له بسبب هذا الطغيان والتكبر.

فجاء الجواب من الله: ﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [يونس: ٨٩]، وافتتاح الجملة بـ(قَدْ)، والفعل الماضي يفيد تحقق الحصول في المستقبل، فشُبه بالأمر الماضي الواقع لا محالة، ومعنى إجابة الدعوة: إعطاء ما سأله موسى ربه أن يسلب عن فرعون وملئه النعم، ويوالي عليهم المصائب، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

قال ابن جريج: يقولون: إن فرعون مكث بعد هذه الدعوة أربعين سنة.

وقال محمد بن علي بن الحسين: أربعين يوما.(٢)

---

(١) التحرير والتنوير: (١١/ ١٦٣)، وينظر: تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٩١)، تفسير أبي السعود: (٤/ ١٧٢).

(٢) أثر محمد بن علي أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره: (٨/ ٨٦)، وأثر ابن جريج أخرجه =

قال الزمخشري: (﴿ فَٱسْتَقِيمَا ﴾: فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة والزيادة في إلزام الحجّة، فقد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف عام إلاّ قليلاً ولا تستعجلا...﴿ وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾).[1]

وهذه فيما يبدو هي المرحلة الأخيرة من دعوة موسى مع فرعون كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الدخان: ٢٢ - ٢٤] حيث لجأ إلى الله -جل وعلا- في القضاء على فرعون وملئه، وإهلاكهم، وذلك بعد اتخاذه سائر سبل الدعوة إلى الله عز وجل في هدايتهم، فلم يأل جهداً في إقامة الحجج، والبراهين، والأدلة عليهم في إثبات ألوهية الله، وبطلان زعم فرعون في الألوهية والربوبية، باللين والملاطفة ابتداءً، وبالحوار والجدال، وإقامة الأدلة البينة الواضحة تارة أخرى، وتخلل هذين الشدة والغلظة في بعض الأحيان، وذكرهم بعقوبة الله -جل وعلا- بالأمم السابقة، والتهديد والوعيد بالآخرة، فلما شعر بعنادهم وكبريائهم ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل: ١٤]، وظهر له مدى ضررهم على الناس في دينهم وعقيدتهم وصدهم عن سبيل الله، واستخدامهم لنعمة الله من المال والمنصب في إضلال الناس عندها دعا الله -جل وعلا- بإهلاكهم واستئصالهم.

وهذه المراحل في الدعوة، والتدرج تدل على مدى حرص الأنبياء

= الطبري: (١٥/ ١٨٧)، وينظر: تفسير ابن كثير: (٤/ ٢٩١).

(١) الكشاف: (٢/ ٢٤٨)، وينظر: تفسير أبي السعود: (٤/ ١٧٢).

عليهم السلام في هداية أقوامهم، وأنهم يسيرون على منهج رباني، وأن الله جل وعلا لا يعذب قوما أو يهلكهم إلا بعد أن يعذروا من أنفسهم مهما بلغوا الغاية من الطغيان والكبرياء: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ [النساء: ١٦٥].

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته الصالحات، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه، وبعد:

فبعد هذا العرض المختصر لهذا البحث الموضوعي "التدرج في الدعوة إلى الله في ضوء القرآن الكريم: خطاب موسى مع فرعون أنموذجاً".

فيمكن في الخاتمة إبراز هذه الجوانب فيما يتعلق بالبحث:

أولاً: الحاجة الكبيرة لدى الداعية إلى الله عز وجل في دراسة طرق الأنبياء مع أقوامهم، والنظر في كلام المفسرين للوصول إلى الأصول المرعية في هذا الباب العظيم.

ثانيا: التدرج في الدعوة إلى الله من الأصول الظاهرة في دعوة الأنبياء، وخطاباتهم مع أممهم، وذلك بحسب حال المدعو ومنزلته ومكانته.

ثالثاً: وجوب انطلاق الداعية إلى الله عز وجل في تأصيله الدعوي من خلال القرآن الكريم والسنة، وتطبيقات الأنبياء عليهم السلام.

رابعاً: التدرج في الدعوة إلى الله عز وجل، يكون بحسب حال المدعو، وقربه من الحق وبعده، مع مراعاة حاله، ومنزلته، ومكانته.

خامساً: إن من أهم أسباب الانحراف الكبير في بعض المناهج الدعوية البعد عن تدبر الكتاب والسنة، والنظر في طرق الأنبياء عليهم السلام في الدعوة إلى الله.

سادساً: إن النظر في حوارات الأنبياء مع أقوامهم، مع التأمل في كلام

المفسرين يثري الداعية إلى الله في حوار المدعو، وتعليمه فقه الدعوة إلى الله، وهذا ظاهر في حوار موسى عليه السلام مع فرعون، وإبراهيم مع والده.

ومن أهم التوصيات:

ونظراً لتشعب الموضوع فإني أوصي بما يلي:

أولا: ضرورة النظر في كلام الله عز وجل وكلام المفسرين حول طرق الأنبياء وخطاباتهم، وحواراتهم في الدعوة إلى الله عز وجل، ومن هؤلاء الأنبياء:

١- إبراهيم عليه السلام مع قومه، ووالده، والنمروذ.

٢- خطاب موسى عليه السلام مع قومه بني إسرائيل.

٣- خطاب شعيب مع قومه، وغيره من الأنبياء..

ثانيا: العمل على إقامة الحلقات القرآنية التي تُعنى بتدبر كتاب الله عز وجل، تأصيلا للدعوة إلى الله من خلال طرق الأنبياء في الدعوة.

والله أسأل أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، وأن يعفو عن الزلل والخطل، وصلى الله على نبينا محمد وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع

- إحياء علوم الدين - محمد بن محمد الغزالي أبو حامد- دار المعرفة- بيروت، الطبعة الأولى.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، محمد بن محمد العمادي أبو السعود، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى.
- الاستقامة- المؤلف: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية-جامعة الإمام محمد ابن سعود - الطبعة الأولى، ١٤٠٣ - تحقيق: د. محمد رشاد سالم.
- أصول الدعوة- الدكتور عبد الكريم زيدان- بغداد، الطبعة الخامسة.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن- محمد الأمين بن محمد المختار ابن عبد القادر الجكني الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت – لبنان. ط. ١٤١٥ هـ.
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين عبدالله الشيرازي البيضاوي، دار الفكر – بيروت، الطبعة الثانية.
- البحر المحيط ـ المؤلف: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي دار النشر : دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت - ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م، الطبعة : الأولى.
- بدائع التفسير - شمس الدين بن قيم الجوزية - دار ابن الجوزي - الدمام - الطبعة الأولى، ١٤١٤.
- بدائع الفوائد- المؤلف : شمس الدين بن قيم الجوزية - مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة-الطبعة الأولى، ١٤١٦ – ١٩٩٦-تحقيق :

هشام عبد العزيز عطا - عادل عبد الحميد العدوي.
- تاريخ الفقه الإسلامي: عمر الأشقر، مكتبة الفلاح، القاهرة، ط: الأولى.
- التبيان في أقسام القرآن، شمس الدين بن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط.١٤١٥هـ.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور- الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس-سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.
- التدرج في دعوة النبي- المؤلف : إبراهيم بن عبد الله المطلق- الطبعة : الأولى- الناشر : وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - تاريخ النشر : ١٤١٧هـ.
- التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن جزي الكلبي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط:١٤٠٢هـ.
- تفسير الشعراوي - محمد متولي الشعراوي، دار أخبار اليوم - القاهرة، بدون ذكر سنة النشر.
- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر : ١٩٩٠ م.
- تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم الرازي، تحقيق: أسعد الطيب، مكتبة نزار الباز، ط: الثانية، ١٤٢٧هـ.
- تفسير القرآن العظيم، عماد الدين بن كثير الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، الطبعة : الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.
- التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، بدون سنة نشر.

- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان-المؤلف : عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي، المحقق : عبد الرحمن بن معلا اللويحق -الناشر : مؤسسة الرسالة-الطبعة : الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م.
- جامع البيان في تأويل آي القرآن، المؤلف: محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة : الأولى، ١٤٢٠ هـ.
- الجامع الصحيح، محمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير، اليمامة – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ.
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر : دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية.
- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي - أحمد بن محمد بن عمر شهاب الدين الخفاجي المصري الحنفي- دار النشر : دار صادر ـ بيروت.
- الحكمة في الدعوة إلى الله، سعيد وهف القحطاني، الطبعة : الأولى، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – المملكة العربية السعودية، ط: ١٤٢٣هـ.
- الخلاصة في الدعوة، علي الشحود، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م،- دار المعمور.
- روح البيان، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، دار إحياء التراث العربى، الطبعة الأولى.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - المؤلف:شهاب الدين محمود الألوسي - دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط. ١٤٢٠

- زاد الداعية إلى الله، الشيخ محمد بن عثيمين، مدار الوطن، الرياض، ١٤١٩.
- زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط: ١٤٠٨هـ.
- السبعة في القراءات، أبو بكر أحمد بن مجاهد التميمي البغدادي، تحقيق : د.شوقي ضيف، دار المعارف - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٤٠٠هـ.
- السراج المنير، محمد بن أحمد الشربيني، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط: الأولى، ١٤٢٥هـ.
- الصحاح، إسماعيل بن حماد الجوهري، دار العلم للملايين- بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٩٩٠.
- الصواعق المرسلة، شمس الدين بن القيم الجوزية، دار العاصمة – الرياض، تحقيق : د. علي بن محمد الدخيل الله، الطبعة الثالثة، ١٤١٨ – ١٩٩٨.
- عمدة القاري شرح البخاري، بدر الدين العيني الحنفي، دار إحياء التراث، بيروت.
- غرائب القرآن ورغائب الفرقان-المؤلف: نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري -دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت/ لبنان - ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م، الطبعة : الأولى- تحقيق : الشيخ زكريا عميران.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن حجر العسقلاني، الناشر : دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.

- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، المؤلف: محمد بن علي الشوكاني، المكتبة العصرية، ط:١٤١٧هـ.
- فقه التدرج في التشريع فهما وتطبيقا، معاوية سيد، مرقوم على الشبكة العنكبوتية (الإنترنت).
- فقه الدعوة في صحيح البخاري، سعيد بن وهف القحطاني، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ، الناشر : الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.
- فقه الواقع، د.ناصر العمر، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الثانية.
- فقه الواقع، الشيخ ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.
- في ظلال القرآن- المؤلف : سيد قطب- دار الشروق، الطبعة العاشرة، ١٤٠٢هـ.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل- المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي- دار النشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت- تحقيق : عبد الرزاق المهدي.
- اللباب في علوم الكتاب، عمر بن عادل الحنبلي، تحقيق : الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٩ هـ -١٩٩٨ م.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، الناشر : دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى.
- محاسن التأويل، محمد بن جمال القاسمي، دار الكتب العلمية، ط:

الأولى، ١٤١٨هـ.
- المحرر الوجيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد دار الكتب العلمية – لبنان – ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، الطبعة : الأولى
- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، عبد الله بن أحمد النسفي، ط: دار النفائس، بيروت، تحقيق: مروان الشعار، الطبعة الأولى.
- مراعاة أحوال المخاطبين، فضل إلهي ظهير، إدارة ترجمان الإسلام، باكستان.
- معالم التنزيل، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، المحقق : عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي –بيروت، الطبعة : الأولى، ١٤٢٠ هـ.
- معارج التفكر ودقائق التدبر، عبد الرحمن الميداني، دار القلم، دمشق، ط: الأولى، ١٤٢٥هـ.
- معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، الطبعة : ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.
- المعجم الوسيط، المؤلف: إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، دار النشر: دار الدعوة، تحقيق: مجمع اللغة العربية، الطبعة الأولى.
- مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى،١٤٢١هـ،٢٠٠٠ م.

- مفردات القرآن، الحسين بن محمد الأصفهاني، دار العلم الدار الشامية، دمشق، بيروت، الطبع: ١٤١٢ هـ.
- منهج الدعوة في ضوء الواقع المعاصر-تأليف عدنان بن محمد آل عرعور-الطبعة الأولى-١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- النشر في القراءات العشر، محمد بن محمد بن الجزري، تحقيق: علي محمد الضباع، المطبعة التجارية الكبرى، الطبعة الثانية.
- نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدين النويري، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان - الطبعة : الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.
- الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب، مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة، بإشراف أ.د: الشاهد البوشيخي، دار مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة، الطبعة : الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.